

الباب الثالث

التربية

obeikandi.com

الباب الثالث

التربية

هناك دائماً نوع من الارتباط والتناسق بين الموقف الفلّفى للفيلسوف وآرائه فى التربية، فالتربية تمثل قمة المذهب الفلّسفى للفيلسوف لأنها تعتبر المحك العملى لفلّفته. وتعتبر فلّفة التربية ذات أهمية خاصة فهى فلّسة ضرورية فى العصر الحاضر، على الرغم مما يتردد بأن هذا العصر ليس عصر فلّسات، إنما عصر الإنتاج والتطبيق العملى والكشف العلمى. وتعود أهمية فلّفة التربية فى أنها فلّفة تبحث عن الأصول والفروض الأولية التى يستند عليها نظام تربوى معين. كما أنها عبارة عن رؤية فلّفية شاملة تحاول اكتشاف العلاقات المتشابكة والمتداخلة وتسعى لتحليلها. فهناك الكثير من الجزئيات فى مجال التربية مثل الخبرة والتعليم والفرد والمجتمع والحرية والنظام والقيم والأخلاق والثواب والعقاب، والعلاقات الإنسانية والديمقراطية. إلى آخر هذه المصطلحات والمفاهيم التى تشكل أركان أى نظام تربوى وتعبّر عن "موقف" معين. كذلك تبرز أهمية دراسة التربية لما لها من دور أساسى فى تشكيل وتكوين شخصية الفرد وصبغ المجتمع بصفات معينة.

ولقد كانت التربية إلى عهد قريب عبارة عن وجهات نظر يضعها الفيلسوف، وتكون منسجمة إلى حد كبير مع آرائه فى الوجود والمعرفة والأخلاق. أى كانت تدخل فى مجال الفكر التأملى. فتصور ما ينبغى أن يكون دون ارتباط بالواقع وتحليله. كما كان ينظر للتربية نظرة صورية، بمعنى مدى تطابق الفكر التربوى مع الإطار الفلّفى ومجمل الآراء الفلّفية التى تشكل النسق الفلّفى لفيلسوف معين، دون اختبار لهذا الفكر التربوى فى الواقع. فمثلاً كانت أهداف التربية ينظر إليها بمنظور فلّفى مجرد أو من خلال مصلحات عقلية يعتقد الفيلسوف فى صدقها، ولم تكن نابعة من دراسة وتحليل للواقع، أو من ارتباطها بمجتمع معين أو بحضارة معينة أو من خلال دراسة لحاجات الإنسان الضرورية. لذا كانت هذه الأهداف أقرب إلى التأملات وأبعد من الواقع، أو دراسة لما ينبغى أن يكون وليست لما هو كائن بالفعل.

ولما كان رسل متمياً للفلسفة التحليلية ويتمتع بخبرة عملية فى مجال التربية . فلقد اتجه إلى دراسة التربية وحاول تحليل أهدافها وتوضيح مصطلحاتها . ولما كانت التربية فى عصره لا تحظى باهتمام الفلسفة التحليلية فإن محاولته دراسة التربية من وجهة النظر التحليلية ، تعتبر محاولة تمتحى الدراسة وتمهد الطريق أمام الفلسفات التحليلية بمدارسها المختلفة لتناول موضوع التربية .

الفصل الأول

تحليل النظريات التربوية والحديثة ونقدتها

كان لمعظم الفلاسفة آراء ونظريات فى التربية، فغالباً ما تحوز التربية اهتمام الفلاسفة لكونها تعد عنصراً ضرورياً وهاماً لأنها تتناول الإنسان طفلاً حتى يصبح فرداً اجتماعياً، ومن الفلاسفة من كان يربط بين نظريته الفلسفية وفلسفته فى التربية. على اعتبار أن فلسفة التربية هى المبادئ الأساسية التى يمكن تطبيقها فى المجال العملى على الفرد والمجتمع، فهى التى يمكن أن تتج وتشكل الفرد أو المجتمع الذى يتمناه الفيلسوف، وأمثال هؤلاء الفلاسفة : "أفلاطون" و"أرسطو" و"هيجل" و"كانط" و"جون لوك" و"روسو" فمنهم من كان ينطلق من مجموعة من المبادئ والعقائد الدينية التى يؤمن بها ويحاول أن يوظف التربية لخدمة الدين، أو لكى ينشأ الإنسان المؤمن، وأمثال هذا النمط من فلاسفة العصور الوسطى "توما الاكوينى" و"القديس أنسلم" و"أوغسطين". ومن الفلاسفة من كان له موقف ناقد ومحلل للأوضاع التربوية القائمة فى المجتمع فيحاول تحديد ما هو صالح منها، ولايقترح فلسفة تربوية جديدة. تاركاً المجال لغيره من المتخصصين، ومن هؤلاء رواد الفلسفة التحليلية والوضعية المنطقية.

ويمكن تقسيم النظريات التربوية إلى ثلاث. . الأولى منها تحاول تطبيق الفكر على الواقع. باعتبار أن الواقع خاضع للفكر مثل الفلسفات المثالية. والثانية تحاول تنظير الواقع باعتباره المصدر الرئيسى للفكر مثل الفلسفات التجريبية. والثالثة تنقد وتحلل الواقع والمعتقدات الشائعة والمصطلحات التربوية والكائنة فى المجتمع، فيتبقى على ما هو صالح وتحذف ما ليس له ضرورة وهى الفلسفات التحليلية والوضعية المنطقية. كما يمكن النظر لفلسفات التربية وتقييمها حسب نظرة كل منها إلى الافراد موضوع التربية. وسوف نجد عدة اتجاهات، فمثلاً اتجاه يرى وجوب التضحية بالفرد من أجل المجتمع أو الدولة (كارل ماركس - هيجل)، أو من أجل الكنية (فلاسفة المسيحية)، وهو ما يطلق على الفرد المواطن الصالح، واتجاه ثان يرى ضرورة الاهتمام بثقافة وتنمية الفرد فوظيفة التربية أن تجعل منه إنساناً، واتجاه ثالث يرى أن التربية يجب أن توفر للفرد كل مقومات النمو، وتكتفى بإزالة العقبات التى تعوقه ويترك الفرد لنفسه وللطبيعة. أما الاتجاه الأخير فيرى أن

التربية يجب أن تجعل الفرد مواطناً صالحاً دون أن تقضى على ثقافته وشخصيته واستقلاله
كإنسان حر ويعتبر رسل من أنصار هذا الاتجاه الذى يؤكد على حرية الفرد والمحافظة على
ثقافته وضرورة تحديد العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعى .

١ - العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعى :

تعتبر العلاقة بين الفرد والنظام الاجتماعى ذات أهمية من حيث تأثيرها على الفرد
وحريته . يقول رسل " ان النظام الاجتماعى كثيراً ما يكون فى حقيقته مؤامرة كبرى على
حرية الأفراد ، فلا يكاد الطفل يولد ، وينشأ حتى يغمره مواطنوه غمساً فى ثقافة المجتمع
الذى كان عضواً فيه ، ولا ينفكون يلقنونه ماذا يعتقد وكيف يسلك . بغض النظر عن
سلامة هذه العقائد أو صواب هذا السلوك ، فليس المهم عندهم هو أن تكون هذه هى
عقائد سائر أفراد المجتمع وهكذا يسلكون . إذن يعتبر أمراً محتوماً على الناشئ الجديد أن
ينصب مع غيره فى قالب واحد ، وإلا فهو الشاذ الذى يستحق أن يوضع موضع
المخزية . ويكون الطفل جديراً بالإعجاب والثناء ، حيث يكون وادعاً يؤدى ما يؤمر
بأدائه ، ولا يبيح لنفسه مناقشة الكبار فى صواب ما يأمرونه بفعله ، وبهذا تصبح عملية
التربية قائمة على أساس التجانس بين هذا الناشئ وبقية أفراد المجتمع ، وعمل المربي
والداً أو معلماً هو أن يقلم فى الناشئ شذوذه ، ويشذب ما قد يبدو فى منحاه من غرابة
عن المؤلف فهناك نمط معين ، وعمل التربية هو أن تصوغ الناشئين على غرار ذلك النمط .
القائم والناشئون إنما يكونون بلا حول أو قوة وهم بعد فى مرحلة الطفولة إذن فعملية
التربية هى فى صميمها استغلال لهذه الطفولة العاجزة عن وقاية نفسها^(١) . لذلك غالباً ما
يستغل الفرد من قبل النظام الاجتماعى لخدمة أهداف معينة دون النظر لمصلحته أو
لإنسانيته . إذ يرى رسل " أن الإنسان غالباً ما يستغل لمصالح الدولة من جهة أو لمصالح
الكنيسة من جهة أخرى ، أى لمصالح رجال الحكومة ورجال الدين . فالدولة من صالحها
أن تجعل النشء مواطنين صالحين ، وتعنى كلمة المواطنين هنا فرداً يقبل الأوضاع القائمة
ولا يثور عليها ، لأنه إذا نشأ ثائراً على تلك الأوضاع فإنه سوف يهدد كيانها . لذلك كان
المواطن الصالح كما تراه الدولة هو ذلك الفرد الذى لا يعترف لنفسه بوجود بالقياس لها ،

(١) د . زكى نجيب محمود ، برتراندرسل ، نص من كتاب رسل " التربية والعالم الحديث ، ص ١٣ * دار المعارف ،
ص ١١٤-١١٥ .

وإذا ما هدد الدولة خطر ما، فإنه من المحتم عليه أن يضحي بنفسه فى سبيلها. كذلك تحاول الكنيسة من خلال التربية الدينية أن تقلل من ثورة الافراد على الأوضاع القائمة. ووسيلتها لذلك تكمن فى محاولة التقليل من خطورة طائفة من الشرور كال فقر والمرض، على اعتبار أن مثل هذه الشرور ما هى إلا أمور تقصر على شئون الحياة الدنيا. وبلا شك فإن مثل هذه المحاولة تصادف هوى فى نفوس الأغنياء. وربما كانت السبب فى أن معظم قادة الحكم متدينون. لأنه إذا كانت اللجنة هى الجزاء الذى يعرض عن الشقاء فى الأرض. فهم على صواب إذا أقاموا العواقب التى تعرقل إصلاح سبيل الحياة على الأرض. ولابد لنا من الإعجاب بمثل هذه التضحية التى يبديها قادة الصناعة والرأسماليون. لأنهم يؤثرون بلا شك صالح غيرهم عن صوالحهم. إذ يأذنوا لغيرهم أن يحتكروا العذاب على الأرض وهو عذاب قصير الأمد، ولكنه موفور الربح فى الحياة الآخرة^(١). فالدين المسيحى يجعل الفرد راضياً بما قسم له فى الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الدين معاوناً للدولة على بقاء الأنظمة القائمة وعلى أن يصاغ النشء على غرارها. وبذلك تصبح المشكلة الرئيسية فى التربية ما هى فى الأخلاق كما ينبغى للعلاقة بين الفرد والمجتمع أن تكون؟

٢ - مصادر النظريات التربوية :

إن مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع تكمن فى أن أماننا الفرد الذى نريد نشئته وتربيته من ناحية، وأماننا من ناحية أخرى هذه الهيئات التى تتسابق إلى اغتصاب عقله وقلبه. وعلى الرغم من تعدد المدارس الفكرية فى التربية فأهمها ثلاث مدارس، الأولى تجعل التربية تنمية لنفس الطفل واستعداداته والثانية تجعل التربية مواءمة بين الطفل وبيئته وثقافة تلك البيئة، أما الثالثة يمكن تسميتها بالنظرية السلية حيث ترى أن هدف التربية الوحيد إزالة العقبات وتوفير إمكانيات النمو للطفل. والحقيقة أن هناك نوعاً من التعارض بين النظريتين الأولى والثانية، بعبارة أخرى يريد أنصار النظرية الأولى أن تحصر عملية التربية اهتمامها فى الطفل ذاته لتنمو طبيعته، بغض النظر عن ملائمة تلك الطبيعة مع ثقافة المجتمع المحيط به أو عدم ملائمتها، فى حين يريد أنصار الفريق الثانى أن تكون

B. Russell : Education and Social Order, (1932). George Allen and Unwin, London, (١)
1977, P.13.

الغاية من عملية التربية إحداث نوع من التجانس بين الطفل والمجتمع . وعلى ذلك يكون موضع الخلاف بين النظريتين هو أن تربي الطفل ليكون " فرداً أم تربيته ليكون مواطناً " والنوع الأول مؤداه أن تنمو الفردية بما يحقق طبيعتها بغير أن يحدد مجرى نمائها ولاء للمجتمع ، والنوع الثاني يقتضى أن يحد من فرديته بما فيه مصلحة الجماعة التى هو عضو فيها .

ولكن حين يود الاختيار بين الطرفين أو تفضيل أحدهما يظهر أن الوضع على حقيقته ليس هو اختيار لهذا الطرف أو ذاك ، إذا الحياة لا تكون إلا جماعة والجماعة لا تكون بغير تعاون أفرادها ، ولتحديد أى النظريات الثلاث يمكن اختيارها لتحقيق التربية النموذجية يحلل رسل المصادرات الأساسية لكل منها كما يلي :

أ - النظرية الأولى (تربية الفرد) : تجعل هذه النظرية تنمية نفس الطفل واستعداداته الهدف الأساسى للتربية يقول رسل " ترى هذه النظرية أن الفرد يشبه "موناذا ليتتز" أى يجب أن يعكس العالم فى ذاته ، وأن يشكل الجانب المعرفى أساساً لسموه وكماله ، كذلك يجب أن يقترن هذا الجانب بالعاطفة والقوة ، بمعنى أنه يجب أن يكون هناك اتساع لأقصى الحدود فى مجال المعرفة والعاطفة والسلطة لكى يتحقق للإنسان كماله وخير الفرد يكون فى إشباع جوانبه الثلاث العقل والوجدان والإرادة ، ولقد عبر الإنسان عن أمله فى نفسه حين صور الله بخياله ، لآئه إذا رسم لنفسه تلك الصورة وضع فيها الكمال الذى يصبو إليه . إن الإنسان تخيل الله حكيماً رحيماً قوياً ، أى تخيله كائناً ذا عقل يدرك الحكمة ، وذا وجدان يبعث على الرحمة ، وذا إرادة لها قوة التنفيذ والعمل ، وهكذا يريد الإنسان أن يكون . أما جانب العقل والوجدان فلا يثيران إشكالا لأن الفرد يستطيع أن يبلغ بهما أقصى حدودهما دون أن يطغى بهما على سائر الأفراد ، وأما الجانب الثالث جانب الإرادة فهو صميم المشكلة وأساسها ، لأن الفرد إذ يمارس قوة الإرادة من جانبه فإنه سوف يؤثر بالضرورة على غيره من أعضاء المجتمع ، لأنه كلما اتسع نطاق إرادته ضاق تبعاً لذلك مجال حرية الآخرين ^(١) .

وتكمن مشكلة التربية فى هذه النظرية ، أى تلك التى تهتم بتنمية جوانب وقدرات الفرد دون النظر ، لمدى ملاءمتها أو عدم ملاءمتها للمجتمع ، فى مجال إشباع إرادة الفرد وتنفيذ رغباته . إذ يرى رسل أن المشكلة محلولة بالنسبة لله كما تصوره الإنسان لآئه وحده

Ibid., P. 13. (١)

فى الكون. فىستطىع أن ىنفذ إرادته كىف ىشاء، فلا ىحتاج لشىء أن ىكون سوى أن ىقول له كن فىكون، وهكذا ىتمنى الإنسان لنفسه لولاً أن معه آخرىن، فرىما قال الإنسان لشىء كن فىكون على غىر ما ىرىده الآخرون، وعندئذ تتعارض الإرادات وتتضارب. لذلك كان أكثر الحالات إشباعاً لطىبعة الفرد هى أن ىكون دكتاتورىاً مطاعاً إذا استطاع ذلك. بل إذا كان الإنسان ىعىش وحده كما كان حال "روىسن كروزو"، لما كان هناك إشكال فى الترىبة وأخلاق تلزمه. وىمكن إشباع جوانبه الثلاث من عقل ووجدان وإرادة إلى أقصى درجة ولا تلزمه أخلاق لأنه لىس إلى جانبـه سواه تتطلب معاملته تحديداً لسلوكه. لكن الفرد من الناس لا ىعىش وحده، إذن فلأمناس من تحديد إرادته بالترىبة والأخلاق^(١). وىتهى رسل من تحلیل مصادرات النظرىة التى تدعو إلى ثقافة الفرد أو ترىبة الفرد لىكون إنساناً، بأنها لىست النظرىة الصعىبة للترىبة، لأنها تؤدى إلى الطغىان وتتضارب الإرادات، وتتوجب طىبعة الفرد منه أن ىكون طاغىة نافذ السلطان، إلا أنه لا ىعىش فى الكون وحده الأمر الذى سوف ىؤدى إلى الصراع.

ب- النظرىة الثانية "المواطنة الصالحة": تهـدف هذه النظرىة من الترىبة المواءمة بىن الطفل والمجتمع، أى الغاىة من عملىة الترىبة إحداث نوع من التجانس بىن الفرد والمجتمع، وقد ىصل إلى حد التضعىة بالفرد من أجل المجتمع. ىقول رسل "تهـدف الترىبة عند أصحاب هذا الاتجاه إلى إىجاد وتكون المواطن الصالح الذى ىخدم الدولة وىحقق أهدافها. وتختلف الأهداف باختلاف الأنظمة الاجتماعىة والمجتمعات. فلقد كان هدف الترىبة فى العصور الوسطى (فى أوروبا) تخرىج القساوسة. وفى بداية عصر النهضة اختلف الهدف وأصبح ترىبة الفرد "المجتلـمان". وأما الآن فى العصر الحاضر فقد أصبحت أهداف الترىبة أن تجعل الفرد مواطناً مطىعاً لخدمة الدولة وأهدافها. وإن كان هناك بعض العناصر التى تهتم بثقافة الفرد، فهى تعد نتاجاً لبعض التقالید التى مارالت مستمرة، ولكن الاتجاه العام السائد هو ترىبة المواطنة. لذلك ىمكن القول أن هناك نوعاً من الصراع بىن ترىبة المواطن والنظرىة القائلة بثقافة الفرد. والحقیقة أن ترىبة المواطن لها مخاطرها السىئة، فإذا كانت تتمتع بالحكمة فإنها تؤدى إلى حجب أفضل ما ىكون ثقافة

Ibid., P. 14. (١)

الفرد، وإذا كانت ضيقة الأفق فإنها سوف توقف التطور الطبيعي للفرد، لكى تجعل منه أداة متوافقة مع الحكومة أو الدولة. وسوف يسبب المسؤولون عن تطبيق تربية المواطن - إذا كانوا من أصحاب النظرة الضيقة لمن "هو المواطن الصالح" - تخلفاً للأفراد حتى كمواطنين، وإنه لمن سوء الحظ إن من يتمتعون بثقافة واسعة من المسؤولين عن تربية المواطنة، والذين يمكنهم تحقيق نوع من الهارمونية بين تنمية ثقافة الفرد وإيجاد المواطن الصالح. غالباً ما لا يحتلون مناصب لها سلطة التنفيذ فى الدولة ويتم استبدالهم بمن هم أكثر ولاء من السياسيين أصحاب النظرة الضيقة للمواطنة^(١).

ويحلل رسل تربية المواطنة إذ يرى "أن تربية المواطن الصالح تكون إما لتأييد النظام للمحافظة على استمراره، أو قد تكون للإطاحة به. فالتربية قبل الثورة الفرنسية والثورة الروسية كانت تهدف للإطاحة بالحكومة. أما فى العصر الحديث فإنها أصبحت إما رجعية محافظة أو تقدمية. فرجعية إذا كانت تؤيد الحكومة وتقدمية إذا كانت معارضة لها. ولسوء الحظ فإن التربية المحافظة التى تهدف إلى المحافظة على النظام، تقوم بتدريس أسوأ عناصر تكوين "المواطن الصالح" فى المدارس والجامعات، حيث تدرس الوطنية فى صورة عسكرية فىؤدى ذلك على المستوى الخارجى إلى تعصب الفرد لدولته وكراهية وعداء للدول الأخرى، وعلى المستوى الداخلى (داخل المجتمع) إلى ظهور نوع من العداء والحقد والصراع بين الطبقات.

وأما تربية المواطن من أجل الإطاحة بالنظام وهى تربية دعاة التغير والثورة، فتعتبر إلى حد ما أفضل من دعاة المحافظة على الدولة، لأن الدعوة للمحافظة على القديم واستمراره لا تحتاج لمهارات عقلية ذات مستوى رفيع، بينما تربية دعاة التغير والثورة تحتاج لقدر كبير من التخيل والمهارة العقلية، حتى يمكن أن تتصور ما يخالف الحاضر أو الوضع القائم، أو يكون لها مقدرة الحكم على الحاضر وأوضاعه من خلال مجموعة من القيم، كما يتمتع الداعى للتغير بالذكاء والعطف، وعلى ذلك فالتربية الخاصة لمن يعادون الدولة أقل كبتاً لمن يصادقونها. إلا أن العداء للدولة أو للنظام قد يكون إما عطفاً على البؤساء وتعاطفاً معهم، وإما كراهية للمحظوظين وحقاً عليهم، فإذا كان العداء للدولة نابعاً من

Ibid., PP. 13 - 15. (١)

الكراهية فإننا نرى كثيراً من الثوريين لا يعيرون التفاتاً لسعادة البؤساء الذين ثاروا من أجلهم، بقدر ما يفكرون في ألوان العقاب الذي سوف ينزلونه على الحكام والمحظوظين. كذلك قد يتجه دعاة التغيير إلى تكوين مجموعات صغيرة ترابط معاً من الناحية الفكرية بمذهب ضيق ومحدود، وفي هذه الحالة لا يكون مذهب الراديكاليين أفضل من الرجعيين^(١).

وأخطر نتائج تربية المواطنة أنها تقف عائقاً أمام البحث العلمي والتقدم. يقول رسل "إن تربية المواطنة تؤثر إلى حد كبير على التقدم العلمي، لأن العلم يقوم على التغيير والجدّة، والمواطنة تطالب بالمحافظة على القديم، وقد لا يعتبر العالم مواطناً صالحاً من وجهة نظر تربية المواطنة، لأن العالم في كشفه العلمي يعتمد على أدلة وملاحظات شخصية، أى تكون من وجهة نظر فردية ولا يساهم المجتمع في تكوينها، كما يتزعج فكرة إلى حالة من التقلب وعدم الاستقرار، فلا يؤمن بأن هناك حقيقة نهائية أو شك مطلق، ومثل هذا التكوين الفكرى لا يتناسب مع التصور الضيق للمواطن الصالح، لأن الدولة ترغب الذين يقدمون نتائج تخدمها، فهى لا تنتظر للعلم باعتباره غاية فى ذاته، بل تنظر له كوسيلة تؤدي إلى المحافظة على استقرارها وبقائها. لذلك فإن الصراع بين الروح العلمية الجادة والاستخدام الحكومى للعلم، سوف يؤدي فى النهاية إلى القضاء على هذه الروح من أجل بناء المواطن الذى ترغبه الدولة، وسوف يؤدي أيضاً إلى ثبات وتوقف التقدم العلمى^(٢).

ولكن على الرغم من مخاطر ومساوئ تربية المواطنة، يرى رسل أن الدعوة إلى وجود تلاحم اجتماعى تلاقى قبولاً عاماً، فإن كل مرافق الحياة ومتطلبات العيش تعتمد على التعاون وكل زيادة فى التصنيع والإنتاج تحتاج لمزيد من التعاون. وكل المجتمعات الكبرى التى لاتسعى لتعميق المواطنة مهددة بالانهيار^(٣)، لذلك لا يمكن الاستغناء عن تربية المواطن على الرغم من مخاطرها، ولكن المشكلة أن تربية المواطنة تنظر للفرد كأداة لتحقيق أهداف المجتمع وتفرض سيطرة المجتمع على الفرد، وإذا ما أريد استبدالها بتربية

Ibid., PP. 16 - 19. (١)

Ibid., PP. 16 - 18. (٢)

Ibid., P. 17. (٣)

الفرد، فإنه سوف يتحول إلى طاغية ويحد من حرية الآخرين، لذلك هناك حاجة إلى تربية تسير في كلا الاتجاهين. أى يكون الإنسان فرداً ومواطناً فى آن معاً.

وحلا للصراع بين ثقافة الفرد وتربية المواطنة يقترح رسل قيام حكومة عالمية، إذ يرى أن الحضارة العلمية تحتاج للتعاون الدولى والإحساس بوحدة الجنس البشرى، وإذا ما كان لها أن تستمر فإنها فى حاجة لتأسيس حكومة عالمية، وتطبيق نظام تربوى واحد يهدف إلى تحقيق الولاء للدولة العالمية ولاشك أن مثل هذا النظام التربوى سوف يؤدى إلى الحد من نمو الثقافة الفردية، ولكن إذا كان البديل هو الفوضى وفناء الحضارة، فإنه يستحق هذا الثمن، والولاء للدولة العالمية لن يؤدى إلى المستقبل المظلم الذى ينتج عن الولاء للدولة التى بها يحيا الفرد. لذلك كانت هناك حاجة فى الوقت الحاضر إلى بث وتنمية الإحساس الحقيقى بالمواطنة العالمية. وعندما يصبح العالم آمناً كوحدة سياسية واقتصادية واحدة، سوف يصبح من الممكن العودة إلى إحياء تربية الثقافة الفردية، ولكن إلى حين قيام الحكومة العالمية يجب أن تسعى الدول الصناعية إلى الموازنة بين تربية الفرد وتربية المواطنة، وإن كنت أعتقد أن تربية الفرد أفضل، لذلك يجب ألا نتقص من إرادة الفرد المطلقة إلا بالحد الأدنى الذى يقتضيه كونه مواطناً. فالفرد أولاً والمواطن ثانياً، وعلى الرغم من اعتقادي هذا نجد أن لأسباب سياسية مازالت تربية المواطن تمثل المرتبة الأولى^(١).

ج- النظرية الثالثة "النظرية السلبية": يعرض رسل لتحليل نظرية تربوية شبيهة بتلك التى نادى بها "جان جاك روسو"، وسبب تسميتها بالنظرية السلبية أنها بالقياس للاتجاه الإيجابى للنظريتين السابقتين (تربية الفرد - وتربية المواطن) تعتبر سلبية، لأنها لاتدعو إلى أى نوع من الإيجابية فى التربية، بمعنى أنها لاتهدف إلى تنمية ثقافة الفرد وإشباع جوانبه بطريقة إيجابية، ولاتهدف إلى تنشئة متجانساً مع المجتمع. يقول رسل "ترى النظرية الثالثة أن الهدف الوحيد للتربية توفير إمكانيات النمو للفرد وإزالة العقبات التى قد تحول دون نموه، فهى تعتبر سلبية بجانب تربية المواطن أو تربية الفرد. وترتبط هذه النظرية بمفهوم الحرية بإيجابياتها وسلبياتها، إذ ترى أن فقدان الحرية يؤدى إلى تكوين نوع من الكراهية فى اللاشعور لدى الفرد تجاه الدولة أو المجتمع أو الكنيسة التى تحد من

(١). Ibid., PP. 18 - 19.

حريته، فتظهر مثل هذه الكراهية فى سلوك الافراد فى الكبر . كما ترفض التعليم الإلزامى لأنه يؤدى إلى القضاء على الذكاء وكبت رغبة حب الاستطلاع عند الطفل، لذلك يعد توفر شعور الطفل بالحرية أمراً ضرورياً^(١).

ولكن على الرغم مما للنظرية السلبية من مآثر لأنها تطالب بالحرية الكاملة للفرد، إلا أن إطلاق الحرية إطلاقاً مطلقاً أمر له مخاطره، إذ يرى رسل "أنه من الضرورى عدم إطلاق حرية الطفل فى مجال التغذية والصحة والنظافة، بل يجب إلزام الطفل بها. كذلك لابد من أن يلزم الطفل بتعلم الدقة فى اللقاءات أو ضرورة الالتزام بالموعد المحدد، كما يجب إجبار الطفل على تعلم احترام ملكية الآخرين، فإن الطفل بطبيعته أنانياً واحترام ملكية الآخرين ليس أمراً غريزياً، وكذلك يجب أن يجبر الطفل على اكتساب عادة بذل الجهد، وتحمل الملل لتحقيق وإنجاز المسائل الصعبة، ولكن فى كل الحالات السابقة يجب أن يكون الجبر والإلزام نابعاً من الإحساس بضرورة التعاون والتعاطف"^(٢).

وبالرغم مما للنظرية السلبية من إيجابيات، فإنها لاتصلح فى كل مجالات التربية، وبالأخص فى مجال التربية العقلية، يقول رسل "أنه على الرغم من صلاحية النظرية السلبية فى مجال التربية الوجدانية، أو فى مجال إشباع الجانب العاطفى والوجدانى للفرد، إلا أنها لا تعد أفضل النظريات فى مجال التدريب العقلى والفنى، أو فى تحقيق إشباع للجانب العقلى والمعرفى للفرد، لأن إصرار هذه النظرية على جعل التربية مجرد عملية توفير لفرص النمو الطبيعى للفرد، لا يمكن أن يحقق للفرد فى كبره مقدره على إدراك التعقد المعرفى فى المجتمعات الحديثة، وطالما أن المجتمع المعاصر يتطلب تدريباً عقلياً وفنياً، فإن هناك حاجة لنظرية أكثر إيجابية، وهكذا بعد دراسة هذه النظريات التربوية الثلاث وضحت حقيقة أن الاعتماد على أى منها لايمكن أن ينتج تربية صحيحة، ولا تعتبر أى منها وحدها كافية، وأى نظام تربوى سليم سوف يعتمد على مدى التناسب الذى يمكن أن يحققه بين هذه النظريات الثلاث"^(٣).

Ibid., PP. 21 - 22 (١)

Ibid., PP. 22 - 25 (٢)

Ibid., PP. 28 - 29 (٣)

٢ - تعقيب.

١ - انتهى رسل من تحليله للنظريات التربوية الثلاث بأن الاعتماد على إحدى هذه النظريات يؤدي إلى نتائج سيئة ولا يمثل التربية النموذجية. فالنظرية التي تؤكد على ثقافة الفرد تؤدي إلى الفوضوية وتنمية النزعة العدوانية عند الفرد، وتربية المواطنة تطالب بالسيطرة على الفرد وتضحي به من أجل المجتمع وتكبث طاقاته وإمكاناته فتعرقل التقدم العلمي، أما التربية السلبية فلا تصلح لتأهيل الفرد للقيام بدور فعال في المجتمعات الحديثة، لذلك يؤكد على أن أي نظام تربوي نموذجي، لا بد وأن يقوم على تحقيق نوع من التناسب بين هذه النظريات الثلاث. إلا أن رسل لم يحدد كيفية تحقيق هذا التناسب بينها، والحقيقة أن رسل لم يتجه إلى تحليل الأسس الفلسفية لهذه النظريات كما يقضى المنهج التحليلي، إنما اكتفى بتحليل نتائجها سواء على الحرية الفردية، أو على بقاء المجتمع واستمراره، وبذلك لم يدرس المشكلة من جذورها، إنما تناول الفروع أو النتائج، وكان تحليل مصادرات النظريات التربوية لا يكون بالبحث عن أصولها بقدر ما يكون في المقدرة على تتبع نتائجها، كما يبدو واضحاً أن رسل تناول دراسة هذه النظريات الثلاث من منظور أقرب إلى المنظور السياسي منه إلى المنظور التربوي، حتى يبين أثر كل منها على علاقة الفرد والمجتمع أو الدولة، وإن كان من الواضح اعتباره حرية الفرد معياراً للحكم على مدى صلاحية هذه النظريات، إلا أن تحليله كان سياسياً أكثر منه تربوياً.

٢ - على الرغم من نقده للنظرية التي ترى أن هدف التربية تنمية ثقافة الفرد، إلا إنه يعتبرها أفضل نظم التربية وأقلها كبتاً لحرية الفرد وطاقاته، وبالرغم من الحاجة إلى التعاون وضرورة المجتمع للفرد، إلا أنه يقرر ضرورة أن يكون هدف التربية أن تجعل من الإنسان فرداً ثم مواطناً، والحقيقة أن رسل هنا يبدو مدافعاً بشكل غير مباشر عن النظام الرأسمالي، لأن النظرية التي تدعو لتنمية ثقافة الفرد ما هي إلا أساس فلسفي من أسس قيام واستمرار النظام الرأسمالي، في حين أنه في نقده لتربية المواطنة لم يطالب بضرورة إلغائها أو عدم صلاحيتها لأنها ضرورة تفرضها ظروف العصر لاستمرار النظام، فطالب بزيادة الاهتمام بالعنصر الفردي وعدم الحد من حرية الفرد بأقل قدر يكفل استمرار المجتمع، فكان رسل هنا يرغب في بقاء المجتمع الرأسمالي على أن يتخلص من صبغة العسكرية باعتباره أقل ضرراً من الأنظمة الشيوعية التي تتبنى تربية المواطنة.

٣ - اقترح رسل حلا ميتافيزيقيا للصراع الدائر بين تربية الفرد وتربية المواطن أو بين خير الفرد وخير المجتمع ، بضرورة قيام الحكومة العالمية ولم يقدم حلا واقعياً أو تربوياً .
والحقيقة لئن كان قد اكتفى بتحديد أوجه الصراع بين النظريتين وبالغاء التساؤلات حول المشكلة التربوية لكان أقرب التزاماً بالنظرة التحليلية الواقعية ، وما كان قد انتهى بحل ميتافيزيقى أبعد ما يكون من الواقع ؛ إلا إذا كان رسل يريد الدعوة لسيطرة الرأسمالية العظمى على العالم . والحقيقة أن فكرة إنشاء حكومة عالمية فكرة لها سابقاتها فى تاريخ الفكر الفلسفى فلقد ظهرت عند أفلاطون ، وأوغسطين من فلاسفة المسيحية ، والفارابى من الفلاسفة المسلمين ، وإن كان الهدف من إنشائها مختلفاً بين هؤلاء الفلاسفة ، وكما يبدو فإن رسل كان متأثراً بأحداث عصره السياسية والاجتماعية ، وبما نتج من آثار عن الحربيين العالميتين الأولى والثانية بالتيارات الفلسفية التى تنادى بفكرة الحكومة العالمية .
كذلك يبدو متأثراً بآراء "كانط" ومشروعه للسلام الدائم ، وآراء هيجل فى الدولة القومية ، وإن كان "هيجل" قد توقف عند حدود الدولة القومية كحل يحافظ به على حرية وثقافة الفرد ، وحمايته له من سيطرة المجتمع وتربية المواطنة . لذلك من الواضح هنا أن "رسل" لم يستطع أن يتخلص من آثار النزعة المثالية التى كان أحد أنصارها فى بداية حياته الفلسفية ، لأنه قد بدأ واقعياً ومحللاً للنظريات التربوية السائدة فى مجتمعه وانتهى مثالياً فى دعوته للحكومة العالمية . ولذا يمكن القول بأنه قد تجاوز النظرة التحليلية التى تقوم على التحليل والفحص دون الاتجاه نحو التركيب أو محاولة إقامة النظريات .

الفصل الثانى

أهداف التربية

يكون لنوع التربية وأهدافها التى تسود مجتمعاً ما أثر على أفرادها، وعلى ما يسوده من فكر سياسى واجتماعى، فقد تودى النظم التربوية لمجتمع ما، إما إلى تقدمه أو إلى تخلفه وانهاره، ولقد وضحت هذه الحقيقة من خلال استعراض تاريخ الحضارات المختلفة، وما أصابها من تقدم أو تخلف من جراء سيادة مفاهيم وأهداف تربوية معينة. ولئن كان هناك دائماً عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية تؤثر بشكل مباشر على تقدم أو انهيار الحضارة، إلا أن سيادة مفاهيم وأهداف تربوية معينة يكون لها أثر غير مباشر فى صبغ هذه الحضارة بصفة خاصة، تترك آثارها على الأفراد فكرياً وسلوكياً وعلى المجتمع بوجه عام. ويمكن دائماً أن تربط بين النظام التربوى السائد فى مجتمع ما، وبين ما قد يلحق بهذا المجتمع من ثبات أو تقدم، أو من اتصافه بالكل والاستسلام أو بالحياة والنشاط، أو سيادة النزعة العدوانية لدى أفرادها، أو اتجاههم نحو التسامح والسلام. كما يؤثر النظام التربوى على السلوك العقلى للأفراد فيجعلهم إما مقدرون للعلم والنظرة العلمية، أو مستسلمون للخرافة. نازعون نحو التشكك أو ميالون للتسليم بالمعتقدات.

ولما كان للتربية ذلك الأثر الخطير على المجتمع وأفراده. فلقد اهتم الفلاسفة بدراسة أهدافها. ولكن فيلسوف التربية فى تحديد الأهداف التربوية التى يرغبها، أو يتمنى تحقيقها يواجه إشكالاً هاماً. لأن نتائج تحقيق هذه الأهداف، لا تظهر كما يعرف فى التجارب العلمية عند التحقق من صدق الغرض، ولما كان الهدف التربوى بمثابة فرض أو تصور لما ينبغى أن يكون، فقد تأتى نتائجه خلافاً لما أراده الفيلسوف. لذلك يلجأ بعض الفلاسفة إلى دراسة الأهداف التربوية التى سادت مجتمعات وحضارات معينة لمعرفة نتائجها. ولقد اتبع رسل ذلك النهج، تناولوا لدراسة الأهداف التربوية فحلل الأهداف التى سادت بعض الحضارات القديمة، والتى ما زالت تعمل فى بعض الدول المعاصرة، وحاول تتبع نتائجها وما لها من آثار على الفرد والمجتمع ثم بدأ يحاول وضع تصور للأهداف التربوية التى يرغب فى تحقيقها.

١ - تحليل أهداف التربية في الحضارات قديماً وحديثاً :

يقوم رسل بتحليل أهداف التربية عند بعض الحضارات القديمة فيرى " أن الحضارة اليونانية وإن كانت قد أنتجت العلم والفن وقدست الجمال، فإنها اتجهت إلى الحروب والعنصرية وأقرت العبودية، فأصبح هناك مجتمع السادة ومجتمع العبيد. أما الحضارة الصينية فلقد أنتجت الفن والثبات والكل والشك وفشلت في تحقيق التقدم، ولقد تشابه اليونانيون والصينيون في الرغبة بالتمتع بالحياة وتقدير الفن والجمال، كما يمكن ملاحظة نوع من التشابه بين التربية التقليدية والصينية وبين التربية اليونانية في عصر ازدهارها. فلقد كان الأطفال في اليونان يتعلمون أشعار "هوميروس" ويحفظونها عن ظهر قلب، والأطفال الصينيون يحفظون تعاليم كونفشيوس، كذلك لم تضع الحضارة اليونانية حواجز بين الإنسان والآلهة أو قيود على الفكر والحرية الثقافية، وفي الصين سادت عبادة الأسلاف وكان مسموح ببعض التحرر والشك الطفيف الذي لا يصل إلى حد الرفض التام أو التعارض. وأما أوجه الاختلاف بين الحضارتين فيتمثل في أن اليونانيين يتمتعون بالنشاط والحيوية، بينما الصينيون يقدسون الكل. وقد وجه اليونانيون طاقاتهم نحو الفن والعلم وإشعال الحروب الخارجية والداخلية وقدمت المذاهب السياسية وفكرة الوطنية مخرجاً وتنفيماً للطاقة اليونانية. أما الحضارة الصينية فكانت معرضة دائماً لأن تهاجم من الخارج وأنتجت التربية الصينية الفن والثبات وفشلت في تحقيق التقدم أو العلم، وسبب هذا الفشل يعدو إلى أن العلم له عقائده الخاصة به التي نادراً ما تنمو وتتطور في محيط من الشك الأدبي. والحقيقة أنه طالما نحيا في عالم يسوده العداء، فإن هناك حاجة ماسة للنشاط والحيوية لتحقيق الاستقلال الوطني، وإلى المخترعات لتوحيد صفوف الأفراد. فبدون العلم تصبح الديمقراطية مستحيلة، ولما كانت الحضارة الصينية قائمة على نسبة ضئيلة من المثقفين، واليونانية قائمة على العبودية، فإن نظامها التربوي لم يعد ملائماً للعصر الحاضر^(١).

وفي تحليل الحضارة اليابانية وما سادها من نظام تربوي يقول رسل " اتخذت اليابان المجد الوطني للدولة هدفاً للتربية وتنشئة المواطن مضحياً بنفسه من أجل مجد الدولة،

B Russell On Education. (1926). George Allen and Unwin. London. 1976. (١)
PP.33-34.

فكل ما يتلقاه من معرفة لابد وأن تكون ذات نفع للدولة. ولقد استطاعت اليابان الحفاظ على ذاتها بهذا النوع من التربية ويمكن إقرار نظام اليابان فى التربية إذا ما كان هناك خطر يهدد الدولة، فأما فى الظروف العادية فإن مثل هذا النظام لايمكن اعتباره أفضل النظم، حيث أخطأوهم فإنها تؤدى إلى كارثة اجتماعية^(١).

ثم حلل رسل أهداف التربية الدينية فى المجتمع الأوروبى التى جعلت خير الكنية هدفاً وحيداً للتربية وأهملت الأفراد ويرى رسل "ان التربية لم تكن مدفوعة بالحب لخير الأفراد بقدر ما كانت تهدف إلى إعدادهم لخدمة أهداف غيبية، فترية "الجزويت" أخطأت فى توظيف التربية لمصلحة الكنية، وإذا ما قبلنا علم اللاهوت عندهم لا يمكن لومهم، لأن إنقاذ الأرواح من عذاب الجحيم أكثر أهمية من أى شىء دنيوى، وهذا الخلاص للأرواح لايتحقق إلا عن طريق الكنية، ومثل هذه التربية تؤدى فى النهاية إلى الانحلال الخلقي والثورة فكانت سبباً من أسباب قيام الثورة الفرنسية^(٢).

والحقيقة إنه إذا كانت التربية الدينية التى مارستها الكنية - كما استتج رسل - تؤدى فى النهاية للثورة على الأوضاع وتغييرها فهى بلا شك تعتبر من أفضل أنواع التربية، وإن كانت الكنية لم تهدف إلى ذلك. فلقد خلط رسل بين "اللاهوت والوحى أو بين رجال الكنية والدين، ومثل هذا الخلط غالباً ما يحدث لما تكتبه المذاهب الدينية أو اللاهوت من قدسية تشابه وتطفى على قدسية الوحى، ولتجنب هذا الخلط لابد من التفرقة بين اللاهوت أو المذاهب الدينية والوحى، فدراسة أهداف التربية لابد أن تنبع من الوحى ذاته مباشرة، دون الرجوع إلى المذاهب التفسيرية أو تعاليم المذاهب الدينية، وربما صاحب الفكر الدينى المسيحى هذا الخلط بين اللاهوت والوحى، لأن الديانة المسيحية لاتفصل عن تاريخها، إلا أنه قد انتقل إلى أديان أخرى، فمثلاً عانى الفكر الدينى الإسلامى منه، بسبب دراسات المشرقين حين درسوه بنفس المنهج. لذلك فإن دراسة أهداف التربية الدينية تتطلب العودة إلى الوحى مباشرة. والالتزام بالتحليل بغرض العودة إلى الأصول والحقيقة أن رسل فى دراسته لأهداف التربية اكتفى بدراستها عند الجزويت والبروتستانت والكاثوليك دون الرجوع للوحى مباشرة.

Ibid., P. 36 (١)

Ibid., P. 37 (٢)

ينتقد رسل نظام التربية فى إنجلترا فيقول "إن نظام الدكتور أرنولد^(١) ما زال حتى الآن يهدف لخدمة الارستقراطية، وتدريب الأفراد على مناصب السلطة سواء داخل الدولة أو خارجها، وتستمد الارستقراطية استمرارها من خلال تدريس مجموعة من الفضائل للطلاب، منها إقناع الأفراد بضرورة الحيوية والنشاط والصحة البدنية وتحمل الشدائد. كذلك إقناعهم بأن هناك قواعد لا يمكن تغييرها وأن لهم مهمة خطيرة فى العالم. فإن كان قد تحقق للارستقراطية ذلك إلا أنه كان على حساب التضحية بالثقافة، لأن الثقافة تقوم على العقل الذى يعتمد بدوره على الشك، وأما العطف والحنان فعواطف مرفوضة لأنها تؤدي إلى عدم القدرة على الحكم. لذلك فالفقوة أفضل من الشفقة. والتضحية بالخيال أمر ضرورى لاكتساب صفى الثبات والحزم، وربما تصلح الارستقراطية فى عالم ثابت لا يتغير، إلا أن عالمنا الحديث يحتاج للتعاطف والنظرة الودية للآخرين، وإلى عقل مبدع سريع الاستجابة للمواقف الجديدة، وإلى اعتقاد أقل فى شجاعة الثور وإيمان أكثر بالمعرفة الفنية، فإن حاكم المستقبل يجب أن يكون خادماً للمواطنين الأحرار وغير مستجد للإعجاب والعرفان بالجميل. ومثل هذه التربية الإنجليزية تؤدي إلى الثورة لأنها تقوم على القسوة وتأكيد فكرة الاستعمار واستعباد الآخرين^(٢).

وأما عن نظام التربية فى أمريكا يرى رسل "أنها تهدف لتأكيد فكرة الوطنية والانتماء. وربما كان ذلك بسبب التركيبة المختلفة للمجتمع الأمريكى عن غيره من المجتمعات. فلقد تكونت أمريكا من شعوب مهاجرة غير متجانسة تم توحيدها، ولأمريكا موقف خاص مثل اليابان ونظامها التربوى غير نموذجى، ويسود المجتمع الأمريكى مستوى عال من الثروة وعدم الخوف من الهزيمة فى حرب ما، ولا يوجد تهديد خارجى دائم وليس هناك تقاليد موروثة من العصور الوسطى. ووجد المهاجرون إليها ديمقراطية سياسية ومرحلة متقدمة من التكنولوجيا الصناعية، ونجد الآباء ذوى وطنية مزدوجة، أما الأبناء فإن وضعهم مختلف ويتأثرون بنظام التربية الذى يؤكد على مفهوم الوطنية. والتأكيد على فكرة الوطنية واعتبارها الهدف الأول للتربية، يعتبر الأفراد دائماً

(١) د. أرنولد، أسس نظام التعليم العام فى إنجلترا

(٢) B. Russell : On Education, PP.38-39.

وسائل وليس غايات فى حد ذاتهم، الأمر الذى يؤدى إلى نتائج سيئة، فلا ينمو الذكاء ولا يتطور السلوك، لأن المدرس لا ينظر للأفراد كغاية فى حد ذاتهم، ولكن كمجرد وسائل أو مادة خام لبعض المشروعات^(١).

والحقيقة ان اختيار رسل الحضارات معينة لدراسة التربية بها، اختيار له أسبابه فلقد اختار حضارتين قديميتين كحضارة اليونان والصين. ثم اختيار دولتين معاصرتين كانجلترا وأمريكا، ويتميز هذا الاختيار بأنه "زمانى ومكانى" بمعنى أنه أراد دراسة التربية من الماضى إلى الحاضر (من حيث الزمان) وفى الشمال والجنوب أو الغرب والشرق (من حيث المكان)، وبذلك يكتب التحليل أبعاده، وإن كانت النظرة التحليلية واتباع المقارنة الموضوعية، كانت تتطلب دراسة التربية فى الحضارة الفرعونية باعتبارها من الحضارات القديمة، والتي كان لها دورها فى بناء التاريخ الإنسانى.

٢ - النظر للفرد كغاية وليس وسيلة :

قبل تحديد المتهج المراد اتباعه فى التربية، لابد أن يكون هناك تصور واضح لأهداف التربية التى نريدها ونوع الفرد الذى نرغبه، وكل فلسفة صاغت أهدافها التربوية بما يتناسب مع أصولها. فهناك الفلسفة المثالية والواقعية والبرجماتية والتقدمية والإنسانية، ولقد جاءت أهداف رسل التربية أقرب إلى حد كبير من أهداف الاتجاه الإنسانى فى التربية، ذلك الاتجاه الذى قد ظهر عند كل فيلسوف بنسبة معينة وإن كانت واضحة فى الفلسفة اليونانية، خاصة "أفلاطون وأرسطو" ولقد زاد انتشار هذا الاتجاه مع بداية عصر النهضة وتؤكد فى القرن العشرين، ويرى أنصار هذا الاتجاه، إن الإنسان لابد أن يكون محور التربية، لذلك نجد أن ما يسمى فلسفة إنسانية ما هو إلا خليط من فلسفات مختلفة مثالية وواقعية وبرجماتية، ومن سمات هذا الاتجاه النظر للإنسان بأن جزء من الكون ونتاج للطبيعة، ولا يعترف بثنائية الطبيعة الإنسانية، ويعتبرها قابلة للتشكيل، ولا بد أن توجه لخير الفرد والمجتمع، كما يدعو للإنانية وينادى بحب الإنسانية جمعاً. ويعتبر الحرية والاستمتاع بالسعادة عنصرين ضروريين من أجل تحقيق تقدم ورقي الإنسان الحضارى،

Ibid., PP. 38 - 39 (١)

فيرى أن الديمقراطية هي النظام الأمثل، ولا بد أن تهدف التربية إلى الدفاع عنها. كذلك لا بد أن تتخلص التربية من التمييز العنصرى والطبقى، ولا تضع قيوداً على حرية الراى والإطلاع، فالعقل والعلم وسيلة الإنسان للتغلب على المشكلات، كما يؤكد الاتجاه الإنسانى على القيم الدنيوية كالسعادة والمنفعة والجمال، ويرفض التصوف والزهد، ويرى أن حل المشكلات الأخلاقية يعتمد على العقل والعلم^(١). ولقد جاءت أهداف التربية عند رسل ممثلة لهذا الاتجاه إذ يرى ضرورة النظر للإنسان كغاية وليس كوسيلة، ولا بد أن ينظر المدرس للتلميذ كهدف فى حد ذاته، وليس كوسيلة لخدمة أهداف أخرى، فلذا عليه أن يسعى لتنمية قدراته وإمكاناته^(٢)، كما وضح هذا الاتجاه فى نقده للتربية الدينية التى تتخذ من الأفراد وسائل لخدمة أهداف غيبية، وفى رفضه للتربية السائدة فى أمريكا واليابان، لأنها تنظر للأفراد كمادة خام وكوسائل لتحقيق أهداف الدولة - كما يرى رسل أن الأطفال يشعرون غريزياً بالفرق بين هؤلاء الذين يغفون خيراً حقيقياً لهم، وبين هؤلاء الذين ينظرون إليهم كمادة خام وباعتبارهم وسيلة لتحقيق مشروع ما، ولن ينمو الخلق والشخصية والذكاء نمواً كاملاً طالما كان المدرس عاجزاً عن إعطاء الحب، والمحبة فى هذه الحالة تكمن فى الشعور بالطفل كغاية فى حد ذاته باعتباره إنساناً^(٣) ويتشابه هذا الهدف التربوى مع آراء المدرسة الطبيعية فى التربية. التى يرى أنصارها أن هدف التربية تحقيق النمو الكامل للفرد، إذ يقول "جان جاك روسو" أحد أنصارها إن التربية بطبيعتها سوف تعيد الإنسان الطبيعى غير المصنع، الذى تكون وظيفته أن يصبح إنساناً. . ويجب أن يسمح للطفل بأن ينمو حسب طبيعته الخاصة، فلا يضحى به من أجل المجتمع، ولا تسحق شخصيته ولا يجبر على الانصيهار الاجتماعى^(٤).

والحقيقة أن هناك نقداً يمكن أن يوجه للمذهب الطبيعى فى التربية بأن مثل هذه الدعوة قد تؤدى إلى الفوضى والأتانية، إلا أن تأكيد رسل على النظر للإنسان كغاية وليس كوسيلة. ربما كان بسبب معاصرة رسل للحريين العالميتين الأولى والثانى، واعتقاده

(١) د. محمد منير مرسى، فلسفة التربية اتجاهاتها، ومدارسها، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٩٧-٢٠١.

(٢) B.Russell: On Education, P.38.

(٣) Ibid., PP. 39 - 40.

(٤) د. محمد سمير - التربية الأصول الفلسفية والنفسية، نص من كتاب جان جاك روسو أميل - الانحلال المصرية، القاهرة سنة ١٩٧٨، ص ٢١

بأن انتشار النزعة الوطنية واستغلال الأفراد كوسائل لتحقيق أهداف الدولة، يعتبر من الأسباب المباشرة لمثل هذه الحروب المدمرة، واقتناعه بأن النظر للإنسان كوسيلة تؤدي إلى الحد من حرية الإنسان، وتحاول صبه في قوالب جاهزة صماء، فتحد من نمو الذكاء وحب الاستطلاع والمغامرة، والواضح هنا أن رسل يعتبر التحرر السياسى والدينى يجب أن يكون هدفاً أساسياً من أهداف التربية .

٣ - الكمال الإنسانى :

هناك صفات عامة نرغبها فى الفرد بشكل عام، وتساعد على تكوين وثقل شخصيته، وتؤدي إلى تكوين الشخصية النموذجية والخلق المثالى، ويرى رسل "أن من الضروري أن يكون لدى المربي تصور واضح وصحيح" للكمال الإنسانى " ونعنى بالكمال الإنسانى الصفات العامة التى نرغبها فى كل إنسان رجلاً أو امرأة، وإن كان هناك صفات نرغبها فى مجموعة معينة من الأفراد ولا نرغبها للكل . فالصفات التى نرغبها للعالم والشاعر، ليست بالضرورة نرغبها لرجل البريد أو الطحان . لذلك فإن ما نقصده بالصفات العامة هى تلك التى يمكن أن يتمتع بها كل الأفراد، وهذه الصفات العامة هى الحيوية والشجاعة والحساسية والذكاء^(١)، والتربية لابد أن تهدف إلى إكساب الفرد هذه الصفات ويشرحها رسل كما يلي :

أ - الحيوية : تعتبر صفة عامة يجب أن تنميها التربية، فيجب أن يكون الفرد نشيطاً يسعى للمبادرة، يعتاد العمل والسعى وراء ما يريد فالحيوية لا تكون فى ممارسة الرياضة بقدر ما هى اكتساب عادة النشاط، والنظرة للعالم نظرة اهتمام وعمل ومغامرة واستغلال، والحيوية صفة فيولوجية أينما توجد توفر للإنسان الغبطة والمتعة وتقلل الآلام، كما تنمى الاهتمام بالعالم الخارجى والقدرة على العمل الشاق، وتعتبر صمام أمان تمنع إصابة الفرد بالحد والكراهية، لأنها تشيع البهجة فى حياته^(٢) .

ب - الشجاعة : الشجاع هو القادر على القيام بعمل ما قد يخاف الآخرون تنفيذه، لذا تتطلب الشجاعة الجرأة والحكمة والقدرة على التصرف المناسب، وللشجاعة صور

B.Russell: On Education, P41. (١)

Ibid., P. 42. (٢)

عديدة إلا أن أهمها التخلص من الخوف والقدرة على ضبطه، والمخاوف بعضها غريزي وبعضها وهمي يكتب بالإيحاء ويتكون من تجارب الفرد، وهو ما يسمى الخوف الوهمي، ويؤدي ذلك النوع من المخاوف الوهمية إلى شعور الفرد بالقلق، وفي حالاته المرضية إلى هوس الاضطهاد، ولا يتم القضاء على هذه المخاوف بالقمع أو الكبت إنما بعوامل نغرسها في الطفل تساعد على التخلص منها. فالتمتع بالصحة والحيوية يساعد الطفل على عدم الاستسلام للخوف، كذلك المran على مواجهة المواقف الصعبة إلى حد ما، واكتساب مهارة التغلب عليها، يؤدي إلى القضاء على الكثير من المخاوف التي قد تزول بمجرد معرفة كيفية معالجتها. كما يؤدي الانفتاح على العالم وتخلص الفرد من النظر إلى نفسه باعتباره محور الكون، ومن قياس كل الأمور بالنسبة إلى ذاته إلى التخلص من كثير من المخاوف الوهمية^(١).

ج- الحساسية : أى استعداد الإنسان للتأثر وجدانياً بالموضوعات المناسبة والصحيحة سواء كان التأثر حزناً أو سعادة، فيجب ألا يسعى الفرد لنيل إعجاب الآخرين وأن يتوفر لديه شعور بالحنان والتعاطف المجرد. والمقصود بالتعاطف المجرد، أن الفرد قد يتأثر بأمور لاتعنيه ولا تؤثر عليه مباشرة، كأن يعطف على أشخاص لايعرفهم ولا تربطه بهم صلة مباشرة، كما أنه قد يشعر بالتعاطف على ما سوف يحدث في المستقبل من أحداث. لذا يحتاج الإحساس بالتعاطف إلى الذكاء، وإذا أمكن تحقيق ذلك سوف يستطيع الفرد التخلص من السلوك النفعي^(٢).

د - الذكاء : إن الذكاء لا يقتصر على مجرد حفظ المعلومات، بقدر ما يعتمد على اكتساب العادات العقلية السليمة التي تؤدي إلى التزود بمعرفة أكثر، ولما كان حب الاستطلاع هو الأساس الغريزي للحياة الفكرية فإن الذكاء يقوم على نوع فريد ومتميز من حب الاستطلاع، الذي ينبع من حب حقيقى للمعرفة. إن حب الاستطلاع من السمات المميزة للطفل التي تنمو معه، وفي اللحظة التي يشعر فيها الفرد بالقلق تجاه كل ما هو جديد أو يتحسر على الأيام الماضية، فيرى أن العالم لم يعد كما كان أيام طفولته، فإن مثل هذا الفرد يكون قد فقد حب الاستطلاع، ويعتبر حب الاستطلاع ذا قيمة إذا كان تجاه

Ibid.. P. 43 - 47. (١)

Ibid.. PP.48 - 50. (٢)

أشياء عامة وليس مرتبطاً بالمصالح الشخصية. ولا بد أن يرتبط حب الاستطلاع المؤدى للذكاء بتكتيك محدد ومعين للحصول على المعرفة، وبعادة الملاحظة الدقيقة وبالإيمان بإمكانية المعرفة. فلذا يجب أن تتوفر فضائل عقلية للمساعدة على تنمية حب الاستطلاع. كالفتح العقلى وقوة التركيز والدقة والصبر، والمقصود بالفتح العقلى استعداد الإنسان دائماً لقبول الفروض الجديدة، والقابلية لتصديق ما قد يتعارض مع معتقداته، التى يكون قد آمن بها زمناً طويلاً واكتسبت نوعاً من التقديس، وأن يتقبل نتائج الجدل والحوار والإيمان بأن المعرفة لم تكتمل بعد. أما قوة التركيز وإن كانت من القدرات التى تتوفر لنفر قليل من الأفراد، فإنها تعنى الاستغراق الكامل للموضوع المدروس استغراقاً عميقاً مركزاً إرادياً. وأما الصبر والكد والعمل الدؤوب من الفضائل المطلوبة مع الاقتناع العامل بإمكانية الحصول على المعرفة مهما طال الزمن. كذلك يجب الاهتمام بالدقة فى المعلومات والتواريخ، وإن كانت الدقة فيهما ليست بقيمة الدقة المنطقية^(١).

والحقيقة أن هذه الصفات العامة التى رغبها رسل فى كل فرد صفات أقرب إلى المثالية وأبعد عن الواقع وتتطلب مجتمعاً بمواصفات خاصة أقرب إلى جمهورية "أفلاطون" كما تشابه أيضاً صفات الفرد المثالى كما تصوره فلاسفة المثالية "أفلاطون" اهتم برسم صورة الدولة المثالية التى من خلال سياساتها التربوية يمكن تنمية الفرد المثالى واستهدف تربية الفرد المثالى الذى يمكن من خلاله تكوين المجتمع المثالى.

ويمكن اعتبار هذه الصفات التى رغبها رسل فى الفرد من الأهداف الإنسانية فى التربية التى قد سادت فى عصر النهضة، إلا أنه من الواضح أن الصفات العامة التى رغبها رسل فى الإنسان، تدور كلها حول تحقيق الحرية للفرد وتخليصه من سيطرة النظم الاجتماعية وقيودها، فجعل الفرد خاضعاً لإنسانيته وولائه للإنسانية جمعاً فالحيوية صفة فيولوجية تعتمد على التربية الصحية وتكسب الفرد النشاط الذى يعتبر شرطاً ضرورياً لممارسة الإنسان لحرية، لأن الكسل والمرض والعزلة تشكل حواجز أمام شعور الفرد بالحرية. أما الشجاعة فإنها تعد وسيلة ضرورية لتحقيق إرادة الإنسان، فالخوف يمجن الفرد داخل ذاته ويحد من حرية. والحساسية تنمى الوجدان وتخلص الإنسان من الأنانية

Ibid., PP. 49 - 50. (١)

والنفعية، فلا نجعله يسعى لحرية وحده. بل يعمل من أجل أن يحصل الآخرون على حريتهم. والذكاء ضرورى من أجل تحقق الحرية، لأن حياة الفرد تتوقف على مدى ذكاء تصرفه فى المواقف، فظروف الحياة لاتستقيم للفرد الغنى، والإنسان الذكى هو القادر على إدراك العلاقات بين الأشياء وإدراك أهدافها القريبة والبعيدة، فالحرية لاتستقيم مع الجهل وكلما تعلم الإنسان زاد نصيبه من الحرية وبذلك تصبح التربية تحقيقاً للحرية الفردية.

٤ - سعادة الفرد :

يعتبر النظام التربوى الذى لايحقق سعادة أفراد المجتمع نظاماً فاشلاً، لذا يجب أن تؤدى التربية إلى تحقيق سعادة الفرد والقضاء على العلل الأساسية للتعاسة، إذ يرى رسل " أنه يمكن التقليل من العلل الأساسية للتعاسة كالفقر والمرض والكبت الجنسى، إذا ما تمتع أفراد المجتمع بالحياة والشجاعة والحساسية والذكاء. فالحيوية تحفظ الصحة وتؤجل الشيخوخة، وسوف تقضى الحساسية والتعاطف على الفقر، والذكاء سوف يرشدهما للطريق، والشجاعة سوف تساعداهما على السير فيه، لأن الجبان يفضل أن يظل تعيساً على أن يفعل شيئاً غير مألوف (لايألفه) والكبت الجنسى الذى يعد سبباً رئيسياً للتعاسة لابد أن تسعى التربية للتقليل منه والقضاء عليه، فإن كثيراً مما يشوه الحياة الجنسية للفرد، يعود فى جانب كبير منه إلى التربية السيئة، التى أدت إلى ظهور جيل قلق من النساء بسبب الاعتقاد بأن الخوف كفيل بالمحافظة على فضيلة المرأة. فتم بث الجبن فيهن فيولوجياً وعقلياً، الأمر الذى أدى إلى النظرة للحب نظرة مريبة وإلى كبت الغرائز الطبيعية. إن تربية جيل واحد من النساء متحرر من الخوف سوف يعطى لنا أطفالاً يتصفون بالمروءة والشجاعة والرحمة، ولايتصفون بالقسوة والوحشية، ولايعانون من تلك الآلام التى يشعر بها الإنسان بسبب الكسل والخوف وغلاظة القلب والغباء، وإن كانت التربية هى التى أتمت الصفات السيئة فهى القادرة على أن تنبت الصفات والفضائل الحسنة، فهى مفتاح العالم الجديد الذى يتمتع أفراد ه بالسعادة^(١).

والحقيقة أن رسل يعتبر تحقيق السعادة هى الغاية الطبيعية للتربية، ويوظف التربية لتحقيق سعادة الفرد، فهى القادرة على خلق جيل حر سعيد، ويقتررب رسل من

(١) Ibid., PP. 55 - 56.

"أفلاطون" في اعتبار السعادة الغاية القصوى للتربية، وإن كان يرى أن السعادة ليست سعادة أخلاقية أو عقلية، بل سعادة واقعية للفرد. ويقترب من المذهب الواقعي الذي يربط بين التعليم وتحقيق حياة سعيدة للفرد، وإن كان قد اختلف عنهم في الوسيلة. كما يعتبر رسل التربية وسيلة وليست غاية في ذاتها. كما يراها البراجماتيون. فالتربية وسيلة لغرس العادات والفضائل التي تؤدي إلى حياة سعيدة وعالم جديد.

٥ - تأكيد التعاون :

يجب أنت تهدف التربية إلى تأكيد التعاون والقضاء على ما يعوق تحقيقه من الدوافع كالاثنائية وحب التملك، فيجب أن تهدف التربية إلى تكوين رغبة قوية لتلقائية لتحقيق سعادة الآخرين والتعاون معهم. لأننا بدون هذه الرغبة نشعر بالملل فتصبح كل التجمعات الإنسانية متحيلة، وتواجه تربية الأبناء مشكلة صعبة، إذا لم يرغب الأبناء في الاستفادة من الآراء الصائبة التي يقدمها لهم الآباء لذا يجب أن يتعاون الفرد مع الجميع. ولكن التعاون لايعنى طمس شخصية الفرد، أى يجب أن يكون لدى الفرد الاستعداد للتعاون، ولكن إذا كان هناك جدل حول موضوع يقع فى نطاق تخصصه، فلا بد أن تكون كلمته نافذة ويقف متحدياً ومعارضاً. فالفلاح مثلاً عليه أن يحدد بنفسه إمكانيات الأرض التي يزرعها طالما أن لديه المعلومات العلمية الزراعية الكافية. ولا يحق أى فرد أوجهة التدخل فى عمله. إذن يجب أن يتعاون الفرد مع المجتمع على أن يستقل فى الحكم على أموره الخاصة والتي يعلم تفاصيلها جيداً. ويجب أن تكون لديه شجاعة فى مواجهة المجتمع عندما يتعارض رأيه مع ما قد يكون شائعاً، خاصة إذا كان رأيه مهماً^(١).

ويعتبر رسل التعاون ضرورياً لمصلحة المجتمع ولسعادة الفرد فالتعاون وسيلة وليس غاية، باعتباره ضرورياً لتحقيق النمو المتوازن للفرد ولاستمرار المجتمع، ولكنه يعود ويقرر أن تحقيق التعاون لايجب أن يقف حائلاً أمام حرية الفرد واستقلاله، والحقيقة أن التعاون يفرض على الإنسان فى معظم المواقف. التنازل عن رأيه خضوعاً لرأى الأغلبية، فالتعاون لاينمو إلا فى ظل الديمقراطية، والتي من عيوبها سيطرة رأى الأغلبية، لذلك فإن تمسك الفرد برأيه فى مجال تخصصه وعلى الرغم من صحة موقفه، إلا أنه يتعارض مع

Ibid., P. 54 (١)

الدعوة للتعاون، وربما قصد رسل هنا أن كون التعاون فى مجالات معينة وليس بشكل عام، لذا فمن الواضح أن رسل يدعو للحرية الفردية حتى إذا كان ذلك متعارضاً مع مبدأ التعاون.

١ - تعقيب :

١ - تدور أهداف التربية عند رسل حول محور واحد، ألا وهو تحقيق أقصى قدر من الحرية والسعادة للفرد، إذ يجب أن تنتج لنا التربية أفراداً يكون الكمال الإنسانى صفتهم الجوهرية، وتنتشر بينهم النظرة الودية والمحبة، فينظرون للإنسان كغاية وليس كوسيلة لتحقيق هدف ما، ويسودهم الإحساس بإمكانية المعرفة وعدم استحالتها، فيؤمنون بالعلم باعتباره أساساً للتقدم وبالحرية كأساس للعلاقات الإنسانية، وكلما زاد إحساسهم بالحرية زاد إحساسهم بالسعادة، وقد تعد تلك النظرة لأهداف التربية بأنها دعوة للفوضوية. فالفرد حر حرية كاملة وكل شىء يجب أن يسخر لخدمته ولعاداته. فإن كان يمكن تبرير هذه الأهداف بأن رسل يريد عالماً جديداً تكون فيه حرية الفرد وسعادته أساساً لقيام المجتمع. إلا أن قصر أهداف التربية على تحقيق الحرية الفردية والبحث عن سعادة الفرد يفرغ التربية من مضمونها الاجتماعى، كما أن محاولة رسل وضع تصور للأهداف التربوية التى يرغبها تجعله أقرب إلى الفلسفات التقليدية، وربما لو أنه قد اقتصر على نقد وتحليل الأهداف التربوية السائدة والمجتمع، لكان أقرب إلى النظرة التحليلية والواقعية والموضوعية.

٢ - انتهى رسل من تحليله لأهداف التربية فى بعض الحضارات القديمة والمعاصرة، إلى أن التربية هى السبيل الوحيد لنهضة المجتمع، فكل ما يعانى به الفرد من تعاسة وكبت لحيته، وما يعرقل تقدم المجتمع يرتد إلى أهداف تربوية خاطئة. والحقيقة أن هذه النتائج لا يمكن ردها بصورة مباشرة إلى النظام التربوى الذى كان سائداً فى حضارة ما، لأن فى ذلك إغفال لعناصر أخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية قد يكون لها دورها فى ظهور مثل هذه النتائج، التى قد اعتبرها رسل نتاجاً للأهداف التربوية، ومع ذلك تعد محاولة رسل تتبع الأهداف التربوية ودراستها فى الحضارات القديمة والمعاصرة محاولة تضيف بعداً جديداً للتحليل. إذا لم يقتصر رسل على شرح معنى الهدف التربوى كمفهوم أو تصور أو تحليله عن طريق التعريفات اللفظية، إنما كان يوضح معناه عن طريق رده إلى الواقع. أو ما يمكن أن يسمى البحث عن البعد الزمانى والمكانى له، حيث تتبع الأهداف

التربوية من الماضى إلى الحاضر (الزمان) وفى الشرق والغرب (المكان)، أى اختار رسل مجتمعات تختلف فى الزمان والمكان لدراسة أهدافها التربوية، حتى يمكن أن يصل إلى تحليل كاف للأهداف التربوية.

٣ - والواقع أنه عند دراسة أهداف التربية هناك عدة مناهج، فإما أن يدرس الفيلسوف التربية من خلال المذاهب الفلسفية الكبرى فى شكل مقارنات ونقد للمثالية أو للتجريبية. . . إلخ من الفلسفات، أو من خلال دراسة التربية وأهدافها فى الحضارات المختلفة، وإن كان رسل انتهج هذا الأخير، إلا أنه لم يتناول دراسة الحضارات دراسة تفصيلية، فمثلا لم يعلل انتشار ظاهرة الشك الأدبى فى الصين والتي اعتبرها حائلاً أمام التقدم العلمى. كما أنه لم يحدد ماذا كان يقصد بالتقدم العلمى فى ذلك الوقت، وربما لم يكن هدف رسل الرئيسى عرضاً مفصلاً لهذه الحضارات التى تناولها بالدراسة بقدر ما كان يحاول أن يبين عدم مناسبة بعض الأهداف التربوية التى كانت سائدة فى تلك الحضارات لظروف العصر الحاضر.

الفصل الثالث

الأسرة، المدرسة، المدرس

الطفل مخلوق ضعيف، وسنوات الطفولة طويلة نسبياً إذا ما قورنت بسنوات طفولة الحيوان. ولما كان الطفل ينشأ داخل الأسرة، ثم ينتقل إلى المدرسة والمجتمع، فلا بد لاي نظام تربوي أن يحدد بشكل دقيق دور كل بيئة من البيئات الثلاث، فبعض الفلفات التربوية، يهمل دور الأسرة ويتجه للتركيز على دور المدرسة والمدرس، والبعض الآخر كالفلفات التربوية الدينية يؤكد على دور الأسرة ويجعل المدرسة مكمله لها. كما تنطلق كل فلسفة تربوية من نظرتها للطبيعة الإنسانية، فقديمياً نادى أفلاطون بشائية الجسم والعقل واعتبر العقل أسمى من الجسم، مما أدى إلى اهتمام التربية عنده بالمعرفة العقلية. كذلك اعتبر الفكر المسيحي الجسد وعاء للروح فجاءت النظرية التربوية تمجد العالم السماوى وضرورة سيطرة العقل على شهوات الجسد، مما أدى إلى احترام المعرفة النظرية، كما ظهرت نظريات تحاول تسيط الطبيعة الإنسانية أما عقلاً خالصاً أو جسماً خالصاً، فهناك بعض الواقعيين الذين يأخذون بالجانب الذى يمكن من خلاله تحول الوظائف العقلية إلى أخرى مادية، فى حين أن المقالين يجعلون من المادة وظيفة للعقل. وأما فى مجال النظر للسلوك الإنسانى تؤمن المدرسة السلوكية فى علم النفس، بأن الاستجابة تميل إلى الظهور عندما تتلقى المثير المناسب، فكل نشاط إنسانى عبارة عن أفعال منعكسة، بينما ترى مدرسة التحليل النفسى، ان الإنسان يملك من خلال معتقدات راسخة فإن لكل ظاهرة سبب سبق. والخلاصة أن كل فلسفة تحدد دور كل من الأسرة والمدرسة والمجتمع من خلال نظرتها للطبيعة الإنسانية.

وقد نظر رسل للإنسان على أنه ذو طبيعة واحدة كما يمزج بين النظرة التى تجعل من الإنسان سلوكاً صرفاً يخضع للملاحظة، والنظرة التى تجعل من الإنسان أحدائاً نفسية يدركها صاحبها بالملاحظة الباطنية، فاعتمد فى دراسة دور الأسرة والمدرسة والدولة فى تربية الطفل على إنجازات علم النفس بفروعه المختلفة، إذ يقول "سوف أتجاهل مسألة تحين السلالة عن طريق علم تحين النسل، أو بأى عمليات أخرى طبيعية أو صناعية، وسوف اعتمد إلى حد كبير على الاكتشافات الحديثة فى علم النفس التى تميل إلى اعتبار

الشخصية تنمو وتتكون من خلال التربية فى سنوات العمر الأولى للطفل^(١). لذا فقد اهتم بدراسة التربية الخلقية التى تتم فى سنوات العمر الأولى داخل الأسرة، ثم بدراسة التربية العقلية التى تتم داخل المدرسة.

أولاً: التربية الخلقية (الأسرة):

تركز التربية الخلقية للطفل على السنوات الأولى من العمر، لذا يكون للأسرة دور كبير فى تلك المرحلة، لأن الطفل إذا ما اكتسب عادة سيئة فى صغره فسوف تقف عائقاً أمام أخرى حسنة فى كبره، لذلك يجب أن تهتم الأسرة باعتبارين أساسيين هما الصحة والخلق، إذ يقول رسل "ان هناك اعتبارين ونحن بصدد تكوين عادة ما فى الطفولة، تكون الصحة هى الاعتبار الأول والاكثر أهمية. ثم يأتى بعدها الخلق، ولحسن الحظ فإن الاهتمام بالصحة وتربية الخلق لهما اتجاه واحد وما يصلح لأحدهما يصلح للآخر، وفى العصر الحاضر أصبحت كل أم على علم بالحقائق البسيطة للتربية الصحيحة الليمية. أما بالنسبة للتدريب الخلقى فإن اللحظة المناسبة هى لحظة الميلاد، ويحتاج الطفل للتعامل معه إلى نوع من الموازنة بين الإهمال والتدليل والتجاهل والاهتمام، كما يجب عدم إعطائه إحساساً بالأهمية الذاتية أو حجماً أكثر من قدره، لأنه قد لا يشعر بتلك الأهمية فى خبراته اللاحقة فى الحياة. كذلك يجب أن تكون القاعدة الأساسية فى التربية. التشجيع على الأنشطة التلقائية والإقلال من الاعتماد على الآخرين وإكساب الطفل عادة النظام الذاتى، ويتطلب تحقيق ذلك إلى الإقلال من فرض النظام الخارجى عليه إلى أقل درجة^(٢).

١ - السنوات الأولى:

ويعرض رسل كيفية معاملة الطفل وما قد يظهر بها من مشكلات قد تعترض النمو الصحيح للشخصية، "فى السنة الأولى يجب توفير وقت كاف للنوم، ويعتبر شعور الطفل بالملل ضرورياً فى الشهور الثلاث الأولى، وبمجرد تعلم الطفل الابتسام فى الطفل الثالث تصبح لديه انفعالات تجاه الأشخاص تختلف عن تلك الانفعالات تجاه الأشياء، فإنه يصبح من الممكن وجود علاقة اجتماعية بين الطفل والأم وتظهر رغبته فى المديح

B. Russell : On Education. P.11. (١)

Ibid., PP. 60 - 61. (٢)

والاستحسان. وبذلك يصبح لدى المربي سلاح جديد ألا وهو المدح والذم، كما يعد الانتظام والروتين ذا أهمية كبيرة في السنة الأولى فإن الطفل لا يميل للتغير أما بالنسبة للمربي، فإنه يتوجب عليه أن يتعامل مع الطفل باحترام وباعتباره فرد سوف تكون له مكانه في العالم، فلا يضحى بالطفل من أجل سعادته الحاضرة، تلك التي يتوقع أن يشعر بها، عندما يجعل من الطفل في المستقبل شيئاً هاماً، فإنهما في الضرر سواء وإذا ما اتبع المربي الطريقة السليمة في التربية فإن الطفل سوف يكتسب الحب والمعرفة معاً^(١). وفي السنة السادسة يرى رسل "أنه يجب أن تكون التربية الخالقة للطفل قد اكتملت وسوف تنمو الفضائل الأخرى التي قد تتطلبها السنوات اللاحقة بطريقة تلقائية، وكتيجة للعادات التي يكون قد أكسبها وما قد ينشط لديه من تطلعات^(٢)

٢ - انفعالات الطفل :

يواجه المربون مشكلات كثيرة في معاملتهم مع الأطفال، وأهمها تلك التي تتعلق بانفعالات الأطفال، لذا يصبح من الضروري دراسة هذه الانفعالات ومعرفة الطرق المناسبة للتعامل معها.

أ - الخوف :

إن معظم ما يعانيه الطفل من مخاوف يكون بسبب التربية السيئة لأن هناك جانباً كبيراً من الخوف يقوم على الاكتساب. إذ يرى رسل "أن معظم المخاوف التي كان ينظر إليها باعتبارها غريزية هي في الحقيقة مخاوف مكتسبة. وكان من الممكن ألا تظهر لدى الأطفال ما لم يظهرها الكبار أمامهم، وللتخلص من كثير من المخاوف يجب اللجوء للتفسير العقلي لما قد يواجهه الطفل من أخطار. وعدم الاكتفاء بمجرد التخويف منها، كما يجب على المربي أن يتحكم في عدم إظهار مخاوفه أمام الطفل. ولذلك يجب أن نربي النساء على الشجاعة كما نفعل مع الرجال، طالما أن للمرأة دوراً أساسياً في التربية. كما يجب أيضاً عدم الاعتماد على الإرادة دائماً للتخلص من المخاوف فإن الاعتماد على الإرادة وضبط النفس حيل ما نخاف منه. لا يؤدي للتخلص من الخوف نهائياً بل يحيل

Ibid . PP 64 - 66 (١)

Ibid . P. 69 (٢)

مخاوفنا إلى اللاشعور ويعمل على كبتها. الأمر الذى قد يجعلها تظهر ثانية. لذلك يجب أن تعتمد التربية الحديثة على إمكانية تكوين عادات مناسبة وصالحة لأن تؤدي إلى نتائج. كان الوصول إلى مثلها لا يتحقق إلا بالإرادة وضبط النفس، وبذلك يمكن إدخار ضبط النفس والإرادة للمواقف التى قد لا يكون الطفل قد واجهها من قبل. كما يمكن بممارسة الشجاعة الحية وبذل نشاط علمى وجهد أن يتخلص الطفل من مخاوفه، ويتم التدريب على اكتساب الشجاعة الحية بتعلم مهارة السيطرة على المادة، وليس مهارة السيطرة على الآخرين كما يحدث فى مباريات كرة القدم، إنما مهارة من نوع المهارة التى يكتبها الفرد من تملق الجبال أو قيادة طائرة أو قارب بحرى، لذا يجب تدريب الأطفال على مواقف بها نوع من المخاطرة وعدم الاهتمام بما قد يصيب الطفل من حوادث اهتماماً زائداً، ويجب معاملة البنت معاملة الولد.

وأما بالنسبة للمخاوف التى قد يعانى منها الطفل بسبب غموضها وعدم وضوحها، فإن التخلص من مثل تلك المخاوف يعتمد على شرحها وتفسير الأحداث تفسيراً علمياً. والخلاصة أنه إذا أراد الإنسان أن يتخلص أولاده من الخوف أو من جانب كبير منه، عليه أن يكون غير هيب هو نفسه، ويقابل المخاطر بالعقل والحكمة وبدون شعور بالخوف ويحاول إكساب الطفل الشجاعة الحية والمهارة وبذل الجهد والنشاط. لأنها أمور تؤدي إلى احترام الذات، كما يسعى لإكساب الطفل النظرة الشاملة والاهتمامات العامة حتى لا يتمحور حول ذاته ويصبح منغلقاً عليها^(١).

والحقيقة أن رسل يعتمد على الآباء بدرجة كبيرة لتخليص الطفل من مخاوفه، وذلك يتطلب نوعية خاصة من الآباء الذين لابد أن يتوفر لهم خبرة واسعة بعلم النفس ونظرياته، لذا فمن الواضح أنه يحاول صب العلاقة بين الوالدين والأطفال فى إطار علمى، ومع أن ذلك تعبيراً عن سمة العصر حيث السيطرة الكاملة للعلم، إلا أنه أمر قد يجعل العلاقة بين الآباء والأبناء جافة، كما أنه قد لا توفر تلك الدرجة العالية من الثقافة لكثير من الآباء. كذلك من الواضح أن رسل يتجاهل عاطفة الآباء نحو أطفالهم فى تلك الفترة من عمره، فقد تدفع العاطفة الآباء إلى القيام بأعمال قد لا يقرها العلم. بل قد يعانى الآباء من صراع بين ما يقره العلم وما تفرضه العاطفة. كما أن ما يطالب به رسل من

Ibid.. PP. 75 - 80. (١)

انتظام الطفل بشكل روتينى فى النوم والغذاء فى سنوات العمر الاولى، يجعل الطفل يشعر بالكبت الذى يرفضه رسل ويحاول تخليص التربية من شروره، لأن ذلك يحول الطفل إلى آلة بيولوجية نتيجة للنظام الصارم.

ب- اللعب والخيال :

يرى رسل " أنه يجب إشباع ما قد يحبه الطفل بصورة تلقائية مثل حب اللعب وحب التصنع، فإنها من الحاجات البيولوجية ويجب أن تمنح الفرصة لإشباعها، وحرمان الطفل من إشباعها يحرمه من الخيال والقدرة على التخيل، فيجعله مخلوقاً حياً لا يتطلع إلى المثل العليا والمستقبل وتصور ما ينبغي أن يكون. ولكن لا يجب أن يشجع على أنواع الخيال أو أحلام اليقظة التى قد تؤدى إلى الكسل، أو ذلك النوع من الخيال الذى يصبح بديلاً لبذل الجهد والنشاط اللازمين لتغيير الواقع. كما يجب تعليم الطفل المهارات من خلال اللعب، فإن التعليم يساعد الطفل على توظيف غرائزه بصورة نافعة، وإذا ما اكتسب الطفل المهارات المناسبة سوف يصبح فاضلاً فى المستقبل، لأنه إذا لم يكتب المهارات المناسبة أو إذا تدرب على أنماط خاطئة منها، سوف يصبح إنساناً شريراً. فالطفل يولد محايداً من الناحية الخلقية، والبيئة هى التى تشكله فتجعله خيراً أو شريراً^(١).

ج- الرغبة فى البناء :

يوضح رسل المقصود بالرغبة فى البناء بقوله "إننا نلاحظ أن الرغبة فى السيطرة هى الدافع الكامن وراء كل أوجه النشاط الإنسانى، وغالباً ما تكيف هذه الرغبة طبقاً لنوع التدريب والمهارة التى يتعلمها الإنسان خلال مراحل طفولته. ومن مظاهرها الرغبة فى الهدم أو فى البناء. لذلك يجب استغلال دافع حب السيطرة لدى الأطفال وتوجيهه نحو الرغبة فى البناء فإن تنمية الرغبة فى البناء يساعد الطفل على تعلم الأخلاق والصبر واحترام الملكية الخاصة والعمل اليدوى وحب الخلق، ويمكن تنمية الرغبة فى البناء لدى الطفل من خلال زراعة النبات وتربية الحيوان، أو من خلال مظاهر الطبيعة بوجه عام، فالترية العملية تساعد على تنمية التزعة البنائية^(٢).

Ibid., PP. 81 - 85. (١)

Ibid., PP. 85 - 90. (٢)

د - الشعور بالإنانية وحب التملك :

يعد التخلص من إحساس الطفل بالإنانية أو من حب التملك من الأمور العامة التي يجب أن تعالجها التربية ويرى رسل " أنه لكي يساعد الطفل على التخلص من الإنانية وحب التملك لا يكون بالقمع والعقاب ولكن بغرس مفهوم العدالة لديه . كذلك لا يجب أن نعتد على مبدأ " التضحية بالذات " أو إنكارها . لكي نقضى على أنانية الطفل ، لأن ذلك المبدأ " إنكار الذات " ليس مبدءاً عاماً أو عملياً ، وبالتالي لا يعتبر صادقاً بالضرورة ، فليس من الجائز أن نكذب من أجل تحقيق الفضيلة وإقرار هذا المبدأ ، لأنه بمجرد إدراك الكذب تتبخر الفضيلة . كما لا يجب أن نغرس حب التملك في النشء فإن كان يعد ضرورياً من الناحية الاقتصادية ويساعد على تنمية النزعة البنائية ويعتبر إحساساً غريزياً ، إلا أنه يجب التعامل مع غريزة التملك من خلال مفهوم العدالة . وبحيث يمنع الطفل من امتلاك لعب الآخرين وتقسيم الألعاب لما هو عام وما هو خاص ، وحتى يدرك الطفل أن ما يحق له غمكه ، لا يكون على حساب الآخرين^(١) .

والحقيقة أن مبدأ الأثرة والإيثار قد احتل جانباً هاماً في فلسفة الأخلاق ، وبالتالي في التربية الخلقية للطفل ، فمن الفلاسفة من قال بالأثرة مثل " بنتام " ومنهم من فضل الإيثار مثل " جون ستيورات مل " ، ومنهم من قال بالتوازن مثل شافتبيري ، أو من رأى سيادة مبدأ الإيثار مع التطور مثل سبنسر ، وإن كان رسل قد اقترب من بنتام في رفض مبدأ الإيثار . إلا أنه لم يطلق العنان لمبدأ الأثرة ، كذلك استند رسل في رفضه لمبدأ التضحية بالذات إلى أنه ليس مبدءاً عاماً أو عملياً ، وبذلك يطابق بين المبدأ والأخلاق والقانون العلمي ، ويقضى على معيارية الأخلاق وتصور ما ينبغي أن يكون . والحقيقة أن مبدأ التضحية بالذات لا يمكن اعتباره متعارضاً مع الغريزة والطبيعة الإنسانية كما يُعتقد ، فإن كانت الإنانية من الغرائز ، فالتضحية بالذات يعتبر أقرب إلى الغريزة من خلال معناها الواسع ، فالآباء الذين يضحون من أجل سعادة أبنائهم لا يمكن اعتبار تضحياتهم متعارضة مع الغريزة ، أو مع الطبيعة الإنسانية كذلك من الملاحظ أن كثيراً من مواقف الحياة تتطلب

Ibid., PP. 97 - 100. (١)

تحقيق هذا المبدأ. واستمرار الحياة الإنسانية دليل على صدقه من الناحية العملية كذلك لا يرتبط تحقيق مبدأ التضحية بالذات في كل الحالات بالكذب كما افترض رسل، بل قد يكون نابعاً من صدق داخلي كما يحدث من جانب الأم في بعض الحالات، كذلك ليس من الضروري أن نحكم دائماً على صدق المبدأ الأخلاقي من خلال ما هو كائن كما يفعل الوضعيون، فلذلك يفقد الأخلاق معياريتها لأن الأخلاق تصور للأفضل، ولما ينبغي أن يكون، حتى أن رسل يرى أنه ينبغي أن نغرس مفهوم العدالة في النشء، وذلك تصور لما ينبغي أن يكون.

هـ- الصدق والكذب :

يقول رسل إن الأطفال يتعلمون الكذب من الآباء، حيث يميل الآباء دائماً للكذب لتمجيد فضائلهم، كذلك غالباً ما يهدد الأب الطفل بأنواع من العقاب ولا يستطيع تنفيذها، أو عندما يعامل الأب الأشياء المادية معاملة إنسانية مثل ضرب الكرسي مثلاً إرضاءً للطفل، وهناك نوعان من الكذب كذب عن قصد ووعى وكذب لاشعوري بدون وعى، ويعد النوع الثاني أكثر خطورة. ويمكن الحد من الكذب عند الطفل باكتسابه فضيلة الصدق من خلال سلوك الآباء، ولا يكون الصدق في التحدث أو في نقل الأخبار، وإنما يكون في التفكير أيضاً^(١).

والحقيقة أن رسل قد حلل المواقف التي يكتسب الطفل من خلال الكذب تحليلاً عميقاً الأمر الذي يوضح ضرورة صدق الآباء في القول والعمل والفكر، إلا أن رسل قد طالب بضرورة تنمية خيال الطفل ومجاراته في حب التصنع، والخيال ما هو إلا نوع من أنواع الكذب. كذلك تقسيم الكذب إلى ما هو كذب واع وآخر غير واع. تقسيم يفتقر للتحديد الواضح، لأن ذلك متروك للشخص، كذلك غالباً ما يعد الكذب اللاشعوري نوعاً من الأمراض النفسية ويمكن اكتشافه بسهولة، وغالباً ما يعامل الناس المصاب به بنوع من الشفقة. أما ما يمثل خطورة فهو الكذب عن وعى وقصد، وإن كان رسل ينظر لتأثير الكذب على شخصية الفرد، إلا أن الكذب عن وعى يمثل خطورة اجتماعية، لذا تؤكد الأخلاق على رفضه والتربية السليمة هي التي تنجح في التقليل منه.

Ibid., PP. 106 - 107. (١)

و - العقاب :

يناقش رسل قيمة العقاب وأنواعه فيرى " أنه ليس بالضرورة اللجوء لاستخدام أنواع العقاب المختلفة فى تربية الأطفال . ، وإذا ما كان شعور الآباء تجاه أطفالهم . قائماً على المحبة وتلقائياً وليس شعوراً من منطلق الإحساس بالواجب أو بالمسئولية ، حتى لا يطلبون من الأطفال أن يردون لهم المعروف والجميل . مقابل ما قد تحمّلوه من مسئولية . كذلك إذا لجأ الآباء للتفسير العقلى للأخطاء التى قد يقع فيها الطفل فى البداية . فسوف لا تكون هناك حاجة للعقاب فى المستقبل ، وإن كان لابد من العقاب فيجب أن يتم بالحرمان من المتع والعزل ، فإن الأنواع الأخرى منه تولد إحساساً بالذنب يفقد الطفل سعادته فى المستقبل^(١) .

ز - المحبة والحنان :

تعتبر تنمية الحب والعرفة من الأهداف الجوهرية للتربية داخل نطاق الأسرة ، إذ يرى رسل " أنه لا يجب جبر الطفل على إعطاء الحب بل يجب أن يتكون لديه بصورة تلقائية وكثيرة طبيعية لمعاملته والحقيقة أن محبة الأبناء تختلف عن محبة الجنس ، لأنها محبة بدون مقابل ، فالولد يعتبر أحد الأعضاء الخارجية للأب . لذا يجب أن لا يجبر الطفل على تقديم المقابل . لئن كان قديماً يسود الاعتقاد بأن الآباء سوف يعتمدون على أولادهم فى الكبر والعجز . فأصبح حب الأبناء لهم من الفضائل الأساسية فى التربية . إلا أنه مع التطور وتوفر المعاش المادى للآباء ترتب عليه أن أصبح حب الأبناء للآباء من التقاليد القديمة ، فى حين أن حب الآباء للأبناء ما زال له قيمة وعلى درجة كبيرة من الأهمية . كذلك من مخاطر المحبة الزائدة لأحد الوالدين أنها قد تؤدى إلى وجود نوع من التبعية الفكرية والعاطفية والواقع أن ظروف العصر الحاضر ومتطلباته تتطلب ضرورة تحرر الطفل من هذه التبعية للآباء . فيجب أن تنبه التربية لمخاطر استعباد عواطف الطفل وإرادته والتى غالباً ما تحدث نتيجة لتنشئة الطفل معتمداً كلياً على الوالدين . وقد يستطيع الولد أن يتخلص من هذا الوضع عند التحاقه بالمدرسة ، إلا أن البنت غالباً ما يصعب عليها

Ibid., PP. 111-112. (٧)

تحقيق ذلك، وغالباً ما يؤدي اعتماد الفتاة على أمها اعتماداً كاملاً إلى فشلها فى الحياة الزوجية. التى تتطلب تحقيق الالتحام الكامل مع الرجل^(١).

ولما كان حب الآباء تقليداً بالياً وأمرأ له مخاطره، فإن رسل يعتقد "أن حب الآباء للطفل يجب أن يكون تلقائياً ودون مقابل لأن أخطر ما فى الموضوع أن نتوقع من الأولاد المقابل ورد الجميل لما نعطيههم من محبة، لذا يجب أن يكون الحب من جانب الوالدين تلقائياً كالتنفس، وإن ظهر من جانب الطفل نوع من رد الفعل يجب تقبله على أنه أمر عادياً ولا نعيه التفاتاً ولا يجب إجبار الطفل عليه. إن متعة الآباء فى رؤية أولادهم ينمون ويتطورون وإذا ما تلقى الطفل الحب المناسب سيكون رد فعله تلقائياً، وإن كان من الضرورى تعليم الطفل المحبة والتعاطف، فإن ذلك يكون بخلق الظروف المناسبة وإطلاعه على أن هناك شروراً فى العالم مثل الحروب والكوارث والأمراض المستعصية، مع تأكيد الرغبة فى التخلص منها، فإن الجهل بهذه الأمور يجعل الطفل يصدم بها فى المستقبل، والمعرفة الكاملة لما يحدث فى العالم من مشكلات تمكن الطفل من التغلب عليها ومواجهتها فى المستقبل. أما تنمية إحساس الطفل بالتعاطف والحنان فيتم بالتوجيه الصحيح للفكر وتنمية القدرة على الملاحظة والانتباه، وبشرح الحقائق التى يخفيها المسئولون العكريون وتوضيح الأعمال الشريرة والقاسية بمزيد من الشرح للحقائق، ويترك للطفل حق التعليق عليها من الناحية الأخلاقية. كذلك توليد المحبة تجاه الأطفال الآخرين لا يتم بالجبر بل بتوفير السعادة للطفل وتحريره من الخوف فبالسعادة والشجاعة والحرية يتخلص الطفل من الشعور بالحد والكراهية^(٢).

والحقيقة إن رسل فى تحليله للمحبة بين الآباء والأبناء، قد ربط بين محبة الأبناء للآباء وبين حاجة الوالدين فى عجزهم لمن يعولهما، وعلى ذلك عند توفر المعاش النقدى فليس بالضرورة أن يبادلانها الأولاد الحب. إذ أن رسل نظر للحب نظرة اقتصادية فإرد الفضائل الخلقية كمحبة الآباء إلى أسباب اقتصادية، فإذا ما انتفت وتغيرت العوامل الاقتصادية ليس صادقا بالضرورة كما يرى أصحاب التحليل النفسى، كما أن توجيه الطفل نحو محبة الآباء واعتبارها واجباً أخلاقياً لا يمثل بالضرورة قيداً على حرية الطفل

Ibid., PP. 127 - 129. (١)

Ibid., PP. 129 - 131. (٢)

وسعادته، ولا يؤدي بالضرورة إلى تبعية الطفل فكرياً للآباء. والحقيقة فلأن رسل قد رفض مبدأ التضحية بالذات وطالب بعدم التأكيد عليه أخلاقياً، إلا أن مطالبة الآباء بمعاملة الأولاد دون انتظار للمقابل أمر يحمل في طياته نوعاً من المطالبة بإنكار الذات من جانب الآباء وإن كان رسل قد اعتمد على رد الفعل التلقائي من جانب الطفل قد يدفعه حب والديه. إلا أن ليس هناك ما يمنع من اعتبار حب الوالدين من الواجبات الأخلاقية التي يجب أن يتأقنها الطفل فإنه يقلل من أنانية الطفل وينمي لديه الإحساس بالعدالة. والحقيقة أن رسل في تحليله لعلاقة المحبة بين الآباء والأبناء قد خلط بين أسباب ظهور الأمراض النفسية. التي تحدث نتيجة للسيطرة الفكرية على الأطفال، أو التي كانت نتيجة محاولة جبر الطفل وإلزامه بمحبة والديه وبين الموقف التربوي أو الهدف الخلقى، ورغبة منه في تحرير الطفل من الأمراض النفسية التي قد تصيبه مستقبلاً. اعتبر محبة الطفل لوالديه ليس هدفاً تربوياً أو واجباً أخلاقياً.

٣ - التربية الجنسية :

إن التربية الجنسية غالباً ما ينظر إليها باعتبارها تقع في مجال التربية العقلية أو من واجبات المدرسة. إلا أن رسل يرى ضرورة الاهتمام بالتربية الجنسية في نطاق الأسرة وفي مراحل العمر الأولى للطفل، لأنها ذات تأثير كبير على تربيته الخلقية، إذ يقول رسل "إن المشكلات الجنسية الخطيرة التي يعاني منها الفرد، ترد في الغالب إلى التعامل الخاطئ تجاه الجنس في مرحلة الطفولة وإلى جهل الأمهات والمربيات لنظريات علم النفس في هذا الموضوع. وللتخلص من المشكلات الجنسية يجب معاملة الجنس مثل معاملة أى موضوع آخر، فلا يجب اللجوء إلى الضرب أو التأنيب. إذا ما حاول الطفل لمس أعضائه. كذلك يعد إشباع حب استطلاع الطفل تجاه الأمور الجنسية من المسائل الهامة التي يجب أن تتم قبل بلوغ سن العاشرة، حتى لا يلجأ للحصول عليها فيما بعد من أصدقائه، ولأن حجب المعلومات الجنسية عن الطفل يجعله شغوياً في كبره. كما يجب معاملة الأسئلة التي تتعلق بالجنس معاملة أى نوع آخر من الأسئلة، وعدم تغيير نبرة الصوت أثناء الإجابة عليها حتى لا يعتقد الطفل أنه يسأل في أمر شائن أخلاقياً. وكون الطفل لا يفرق بين أنواع المعرفة فسوف يولد ذلك لديه نوع من الكبت وتأنيب الضمير، يجعله يخشى أن يسأل حتى في الموضوعات العلمية التي يدرسها فيما بعد. إن التعامل مع الأسئلة الجنسية ببساطة وصراحة وظهور أفراد الأسرة عراياً أمام الطفل، سوف يجعله ينظر للجنس نظرة

موضوعية طبيعية، ويفرق بين الجسدين ويكون أفكاره الخاصة حول الموضوع^(١). أما باقتراب الطفل من مرحلة الشباب. فإن رسل يرى "ضرورة شرح الأمراض الجنسية للشباب حتى يتجنبوها، ولا ينظر للإصابة بها على أنها خطيئة أو أمر يتعلق بالأخلاقية فى شىء،، وتعامل مثل الإصابة بأى مرض آخر وتنظر لها نظرة علمية موضوعية. كما يجب أن يعرف الشباب أهمية وكيفية الحصول على الأطفال، ولا يعتمد فى ذلك على الغريزة باعتبارها كفيلة بتعليم الشاب كيف يحصل على الأطفال، كذلك يجب شرح مسئولية تربية الطفل وقيمة المحبة الأبوية التلقائية للطفل، وعدم اعتبار هذه المحبة نوع من الواجب بقدر ما هى أمر تلقائى يجب أن يقدمه الأب للطفل ليحقق له أفضل فرص النمو^(٢).

من الواضح أن رسل يؤكد على أهمية الأسرة لغرس أهم القيم الخلقية فى الطفل فى سنوات عمره الأولى، وبذلك يقترب إلى حد كبير من الاتجاهات الدينية فى التربية، التى تعطى للأسرة دوراً هاماً فى التربية. إلا أنه يطالب الأسرة أن تبث مفاهيم الأخلاق الإنسانية بدلاً من المفاهيم الأخلاقية التى تستند على الدين. والحقيقة إن تأكيد رسل على أهمية الأسرة فى التربية يتفق مع اعتباره تنمية ثقافة الفرد هدفاً للتربية، إلا أنه أغفل تماماً أن إعطاء هذه الأهمية للأسرة فى التربية، قد يؤدى إلى أنماط مختلفة فى التربية. لأن لكل أسرة عادات وتقاليد ورغبات تتفق مع ظروف تكوين الأسرة نفسها، وذلك سوف يؤثر بلاشك على تحقيق الهارمونية والتناسق بين طبقات المجتمع، وإن كان قد افترض أن الأسرة يجب أن تربي الطفل على أهداف إنسانية عامة. إلا أن طبيعة تكوين الأسرة وماهيتها ووضعها الاقتصادى والثقافى والاجتماعى يؤثر عليها. وقد يتحكم فى أدوار كل فرد فيها. كذلك من الواضح أن رسل لا ينظر للأسرة كوحدة اجتماعية قائمة بذاتها، وإنما يعتبرها مؤسسة صناعية وظيفتها إنجاب الأطفال وتوفير المحبة والحنان لهم وتربيتهم بالطرق العلمية. وطالما كان الحب والحنان من جانب الآباء تلقائى، والأطفال لا إلزام عليهم بمحبة الآباء أو إعالتهم فى الكبر. فإن الأسرة تفقد قيمتها الاجتماعية.

Ibid., PP. 139 - 140. (١)

Ibid., PP. 141 - 142. (٢)

ثانياً، التربية العقلية (المدرسة) :

ما زالت للمدرسة أهميتها. فى تكوين الجانب العقلى لدى الطفل، وإن كانت الأسرة هى المسؤولة عن تنمية خلق الطفل، فالمدرسة هى التى تعمل على إعداد وتنمية عقله، ومعظم الفلسفات التربوية قد أكدت على أهمية المدرسة، ولئن كانت قد اختلفت فيما بينهما على نوع المنهج الدراسى ووظيفة المدرس ودور المدرسة. فالفلسفة المثالية مثلاً قد اعتبرت المدرسة أداة لتطوير الذات الإنسانية والسمو بها والبرجماتية ترى فى المدرسة وسيلة لإكساب الطفل المهارة اللازمة التى تساعد على حل المشكلات، فالمعرفة وسيلة وليس غاية فى ذاتها، وهكذا حددت كل فلسفة من الفلسفات أنواع المناهج وطرق التدريس الى ترى أنها تحقق مبادئها، وتتفق مع نظرتها للإنسان ودوره فى المجتمع. ويقترب رسل فى نظرتهم للتعليم من الاتجاه الإنسانى، إذ يرى أن التعليم لابد أن ينبع من السعادة ومن إحساس بحرية الاختيار والاتصال بالطبيعة ويهدف إلى زيادة المعرفة وغرس المحبة والتعاون والتطور والمعاصرة، كما يجب أن يكون هدف العلم سيطرة الإنسان على الطبيعة^(١). وعلى ذلك تعتبر المدرسة وسيلة لتحقيق التقدم وتوفير الحرية والسعادة للفرد.

١ - المنهج الدراسى ومواد الدراسة قبل الرابعة عشر :

يرى رسل " أن تحديد ما ينبغى أن يتلقاه الفرد من تعليم، وما هى أفضل الطرق لتحقيق ذلك، أمر يؤدي إلى نتيجة أفضل ومزيد من العلم. ففي المراحل الأولى للتعليم يجب أن يقتصر المنهج الدراسى على محاولة اكتشاف قدرات الأولاد ومدى قابليتهم لموضوعات الدراسة، وأن يقتصر على المعارف العامة ويتحس رغبات الطفل وما يميل إليه، ثم يطور هذا الميل فى المستقبل بالتخصص، كما لايسند أن يبدأ المنهج الدراسى فى تلك المرحلة بالمواد البسيطة، كان يتعلم الطفل مبادئ الرسم والغناء والرقص والدقة فى الإدراك، والقدرة على التركيز بدراسة الحساب. بشكل تدريجى^(٢) وأما بالنسبة للمواد التى يجب أن تدرس فى هذه المرحلة فهى.

Ibid., P. 147. (١)

Ibid., P. 149. (٢)

أ - التاريخ والجغرافيا :

إن مادة الجغرافيا يجب ألا تدرس كغاية في ذاتها، إذ يرى رسل ضرورة ربط دروس الجغرافيا مع الرحلات والأسفار وتدرسيها من خلال القصص والصور السينمائية. واعتبار الدروس الجغرافية إجابات لإشباع حب الاستطلاع. فمادة الجغرافيا ليست لها قيمة عقلية في حد ذاتها، ولكن مع تدرسيها مقترنة بالصور تصبح مادة خصبة للتخيل وإثارة خيال الطفل، فيعرف أن هناك أوطاناً بعيدة مختلفة، وكما أن اكتسابه القدرة على التخيل يمكنه من الخروج من بيئته المألوفة وتخلصه من النظرة الضيقة والتعصب. أما التاريخ يعتبر تدرسه عنصراً هاماً لإدراك التطور الزمني، ويجب أن يدرس كنوع من أنواع الأدب مثل قصص البطولات ويعرض لتطور وصراع الإنسان مع الظلام والفوضى من الماضي إلى الحاضر، ولكيفية تغلب الإنسان على البيئة، فيبدأ بسرد مرحلة الإنسان البدائي والكهف والجمع والصيد، ثم كيف انتقل إلى الزراعة واكتشاف النار والإكتشافات العلمية، كما لا بد أن يعرف الطفل "سقراط" و"نيوتن" و"جاليليو" وكل من أسهموا في بناء الحضارة الإنسانية والمدنية وساعدوا الإنسان في السيطرة على البيئة وفي صراعه مع الجهل والفوضى، كذلك يجب أن يعطى له تصوراً لمستقبل البشرية تظهر الحروب من خلاله معطلة ومعوقة للتقدم الإنساني^(١).

والحقيقة أن رسل يسعى لإقامة المنهج الدراسي وتصميمه تبعاً لرغبة الطفل، ويقرب من البراجماتية في اعتبار الطفل أساس ومحور المنهج الدراسي، وليس الكتاب أو المدرس أو المادة. وإن كان رسل لم يحدد اهتمامات الطفل، كما فعل جون ديوى، "وحددها بالمل والتجارب والاتصال والبحث والاستنتاج والبناء وعمل الأشياء والتعبير النفسى"^(٢). فلقد اكتفى رسل بضرورة أن يكون المنهج إشباعاً لحب الاستطلاع، كما اعتبر رسل مادة الجغرافيا وسيلة لتنمية الخيال والقضاء على التعصب فلم ينظر لقيمة المادة في الحياة العملية وأهميتها لمعرفة الكون وما يشمله من ظواهر تضاريسية ومناخية... إلخ واكتفى بنظرة سياسية للجغرافيا باعتبارها وسيلة للقضاء على العنصرية والوطنية.

(١) Ibid., PP. 172-173.

(٢) د - محمد منير موسى، فلسفة التربية، نص من كتاب جون ديوى، المدرسة والمجتمع، ص ٢٤٧، عالم الكتب، ١٩٨٢، ص ٢٨٥ - ٢٩، القاهرة

أما بالنسبة لمادة التاريخ فبالرغم من كونه علماً له أصوله ومناهجه، فإن رسل يكتفى بتحويله إلى نوع من الأدب وقصص البطولة، فلتن كان تدريس التاريخ من منظور إنساني باعتباره عرضاً لصراع الإنسان مع البيئة، وإظهار للحروب كمعوقات للتقدم الإنساني، يخلص الطفل من التعصب ويؤكد الدعوة للمحبة والسلام، إلا أن النظرة العامة لتاريخ الإنسان وعدم معرفة الطفل لتاريخ شعبه، تغفل كثيراً من المشكلات والمظالم التي قد تكون سبباً لمعاناة مجتمعه. إن تلك النظرة للتاريخ قد تكون مناسبة للدول المستقرة سياسياً (كالدول الغربية مثلاً)، أما الدول النامية والمستعمرة لن يفيد تدريس تاريخ صراع الإنسان مع البيئة في تحريرها أو في تقدمها. وإذا كان هناك ضرورة لتوظيف مادة التاريخ، فإن وظيفتها الأساسية تكمن في خدمة المجتمع وتتناسب مع ظروفه السياسية، فالأمة المستعمرة تحتاج عند تدريس التاريخ لإبراز فترات النضال والحرية في تاريخها. لكي تعتبر نموذجاً ودافعاً لأجيالها. يؤدي بهم إلى التحرر، وأن تظهر الحروب في التاريخ كضرورة حتمية للتحرير والتغيير والبناء والتطور، وعلى أنها الخطوة الأولى لبداية الطريق نحو الحرية وليست الأخيرة، فيعرف الطفل أن الحرب وسيلة للتحرر وليست غاية في حد ذاتها.

ب- العلوم الأخرى:

وتشمل الآداب والرقص والغناء واللغات، فبالنسبة للآداب والرقص والغناء، يرى رسل "أن الرقص والغناء يوفر للطفل المتعة والنشاط البدني، ويولد الرقص الجماعي الإحساس بالتعاون وينمي الإحساس الجمالي، أما الآداب فيجب ألا يدرس كتاريخ ولكن في شكل قصائد وقطع أدبية تحفظ، لأن الحفظ نوع من تدريب الذاكرة وتحسين النطق واللغة، كذلك الاهتمام بالتمثيل فالإلى جانب ما يوفره للطفل من متعة فإنه يعطيه فرصة أن يتصور نفسه مكان الآخرين ويعيش حياتهم ويلعب أدوارهم. وأما بالنسبة لتدريس اللغات فلا بد أن يدرس الطفل اللغات الحديثة إلى جانب لغته الأصلية، لأنه لا يبدل جهداً عقلياً في اكتساب اللغة. كذلك الرياضيات والعلوم. يجب أن ينظر إليها كما ينظر للفن. على أنها نوع من الموهبة ولا يجوز إجبار الطفل على تعلمها. وأخيراً لكي يكتمل المنهج الدراسي يجب أن يستمر التعلم خارج المدرسة بالاتجاه نحو تعلم الزراعة وتربية الحيوان، فإن ذلك يوفر متعة للطفل ويكسبه خبرة بالحياة^(١).

B. Russell : On Education, PP. 176 - 178. (١)

٢ - طرق التدريس :

يجمع رسل بين الاتجاه المثالي والاتجاه الواقعي والاتجاه الإنساني في طرق التدريس .

أ - الاتجاه المثالي:

يؤكد رسل على حياد المدرس ومساعدته للطالب على اكتشاف ذاته وتنمية روح المناقشة، إذ يقول " لا بد أن يشعر الطالب بسهولة المادة العلمية، وأن تصبح المعرفة نوعاً من الإشباع لحب الاستطلاع، فتكون هناك موضوعات عامة تطرح للمناقشة في السياسة والدين والاقتصاد. . الخ، ومن خلال المناقشة يحاول كل طالب أن يؤكد وجهة نظره بالحجج والأدلة والبراهين، فإذا ما اتضح ميوله نحو مذهب معين، يقوم المدرس بمساعدته بدله على المراجع التي تنمى هذا المذهب وتصلقه، ويجب ألا ينحاز المدرس لمذهب معين، وإذا ما اتفق الطلاب على رأى معين، يجب أن يتبنى المدرس الرأى المضاد كوسيلة جدلية للحوار^(١).

كما يؤكد رسل على قيمة الشك المنهجي، كما ظهر عند "سقراط" كمنهج لتوليد المعرفة وتنمية الثقة بالذات، والذي كان دافعاً للروح العلمية عند "ديكارت" فيجب عدم قبول فكرة ما دون دليل أو برهان، ولا بد من مراجعة المعتقدات السابقة قبل التسليم بها، ويرى رسل " أن تنمية الروح العلمية وزيادة الرغبة في معرفة الحقيقة . يتطلب نوعاً من الشك الأولى فيما لدينا من معتقدات، حتى تتضح صحتها بالأدلة والبراهين. كذلك يجب عدم الاستسلام والركون والكل من منطلق الاعتقاد باستحالة المعرفة، ولا بد أن تكون هناك ثقة وشجاعة عند مراجعة هذه المعتقدات فليس هناك ما هو مبرهن عليه سلفاً، وفائدة هذه المراجعة أنها تنمى الروح النقدية ومهارة البحث عن الأدلة، فتعد مثل هذه الحركة النقدية للعقل . صمام أمان أمام الدعاية الزائفة لوسائل الإعلام^(٢).

ب - الاتجاه الواقعي :

يطالب أنصار الاتجاه الواقعي في التربية بضرورة ربط المنهج بالواقع والحقائق العلمية، ويقترب رسل من هذا الاتجاه، إذ يرى " ضرورة ربط المنهج الدراسى بمسائل الحياة العامة،

(١) Ibid., PP. 180- 182.

(٢) Ibid., P. 185.

بحيث تكون لدى الأطفال انطباع بأن مايدرسونه من مواد ذات منفعة عملية فى حياتهم . كذلك تعليم الأطفال عن طريق النماذج كيفية تحويل فكرة ما إلى سلوك عملى فى الحياة . ولتحقيق ذلك لا يصح إطلاق المجال للعاطفة والخيال ، فالعواطف تعطل التفكير بينما الفكر لا يؤثر على العاطفة ، وليس المقصود كبت العاطفة إنما محاولة توجيهها نحو البناء ، وبالعقل يتم تحقيقها فى عالم الواقع وليس فى عالم الخيال . والحقيقة أن الفرد عندما لا يشعر بالرضا عن العالم الخارجى . فإنه يتخيل لنفسه عالماً خاصاً به ، يشبع فيه رغباته دون جهد ، فيؤدى ذلك بلا شك إلى إصابته بالهستريا وإلى ضعف شخصيته ، وبعد منبعاً للتعصب والتدين والميل نحو الخرافة ، لذا لا بد أن يكون من أهداف المنهج الدراسى ، محاربة مثل هذا الوضع . بأن يزيد من إحساس الفرد بما يمكن أن يتحقق فى العالم الواقعى وأن يجعله أكثر واقعية فيما يمكن أن يتحقق من أحلامه ، وإن كان التخيل أمراً محموداً عند الأطفال فإنه ذو تأثير سىء عند الكبار^(١) .

جـ- الاتجاه الإنسانى :

يظهر الاتجاه الإنسانى عند رسل واضحاً حيث يقول لا بد أن يتخلص الطفل من الإحساس بالعصية ، وبأن دولته أفضل الدول ومدرسته أفضل مدرسة . وطبقته أفضل الطبقات ، أو كما تصور "دون كيشوت أن خوذته أقوى خوذة ، فإن مثل هذا الإحساس يؤدى إلى الكسل والهروب من الواقع وعدم مواجهة الحقيقة ، ولكى يستطيع الإنسان الإعتراف بالخطأ ومواجهة الحقيقة كما هى ، لا بد أن يتخلص من الخوف . والخوف إما حسى أو عقلى ، والخوف الحسى يقل بدرجة كبيرة إذا ما استخدم الفرد ذكائه فى تجنب المخاطر غير الحتمية ، أما الخوف العقلى فإنه يعتبر عقبة أمام التفكير السليم الصادق ، ويمكن التغلب على هذا النوع من الخوف فى مراحل الطفولة لأن تغيير الطفل لرايه لا يولد لديه إحساساً بالتعاسة التى قد يعانى منها الفرد الناضج عندما يغير رأياً من آرائه ، فالإنسان الناضج يجد دائماً صعوبة فى تغيير آرائه ، لأن حياته تكون قد ثبتت على مجموعة من الملمات والمعتقدات . لذا لا بد من تشجيع عادة المعارضة بين الشباب . ولا بد أن يسعى المدرس نحو تعليم الشباب كيفية التفكير النقدى ، حتى وإن كان النقاش خاصاً بمسائل

Ibid., PP. 183 - 184. (١)

وحقائق ثابتة، ولا يحق له التضحية بقواعد الفكر السليم من أجل أن يؤكد على عقائد أخلاقية معينة^(١).

والحقيقة أن رسل عند تحديده لطرق التدريس والمواد والمنهج الدراسى لم يعرص الجديد، حيث انتقى من الاتجاهات الفلسفية التربوية ما يتناسب مع اتجاهه الإنسانى، فلقد نادى بالتلقائية والحرية والارتباط بالمواقع وتنمية الروح العلمية، وتلك مبادئ كانت سائدة فى عصره. كذلك من الواضح أنه قد ضحى بالأخلاق والدين من أجل خدمة أهداف سياسية كالقضاء على الوطنية والعنصرية والحروب، ولئن كان ذلك أصدق تعبير عن الاتجاه الإنسانى فى التربية، والذي قد وضح فى القرن التاسع عشر، إلا أن إلغاء الدين من المناهج الدراسية أمر له مخاطره التربوية ودعوة إلى الفوضى. كذلك وإن كان رسل قد رفض توظيف التربية من أجل خدمة أهداف الكنية أو الدولة، فإنه يوظفها للقضاء على الأفكار السياسية التى تهدد كيان الحضارة الأوروبية.

ثالثاً : المدرس :

يعتبر المدرس حلقة الوصل الأساسية بين المنهج الدراسى والطالب. لذا لم تهمل فلسفة من الفلسفات التربوية على اختلاف اتجاهاتها تصوراً لدور المدرس، فالفلسفة المثالية تنظر للمدرس باعتباره غارساً المقيم والمثل العليا، والبراغماتية تراه براغماتياً قادراً على تميزه المشكلات ومتناولاً لكل منها على حدة. وموضحاً قيمتها فى المجال العملى، ناقلاً لطريقة المحاولة والخطأ والتجريب والفلسفة الوجودية تراه متحملاً للمسئولية ناقلاً فى طلابه الإحساس بالحرية وتنمية المسئولية الفردية، ومخلصاً للقلق والتوتر ومهماً بالبناء السيكولوجى للفرد، أما الفلسفة الواقعية فإنها ترغب فى المدرس أن يكون ناقلاً للحقائق موضوعى النظرة فعندما يدرس الكيمياء مثلاً يكون كيميائياً، وهكذا فى كل المواد، والاتجاه الإنسانى يحمل المدرس مسئولية الإلمام بقضايا العصر والدعوة للسلام وإهمال الأديان. والحقيقة أن كل اتجاه فلسفى تصور دوراً للمدرس يمكن أن يحققه دون دراسة واقعية لمعاناة المدرس ومشكلاته. ولقد تصور رسل دور المدرس بحيث يؤدى إلى تحقيق الأهداف التربوية التى يرغبها. ووضح وحلل علاقته بالدولة والأحزاب ودوره الحضارى باعتباره مدافعاً عن الحرية والديمقراطية.

Ibid.. P 187 (١)

١ - المدرس والصدق مع الطلبة:

يصور رسل علاقة المدرس مع الطلبة بقوله "لابد أن يكون لدى المدرس شعور بالمحبة تجاه طلبته، ورغبة حقيقية فى نقل المعارف ذات القيمة العلمية لهم. ويختلف المدرس عن الداعى الذى يرى فى طلبته جنوداً أكفاء فى الجيش. يخدمون أهدافاً خارج ذواتهم ليس بمعنى "التعالى" خارج الذات ولكن بمعنى حماية مكاسب غير شرعية لسلطان أو طاغية، ولا يرغب الداعى أن يخدم طلبته الأهداف الإنسانية أو يختاروا أهدافاً تبدو لهم ذات قيمة علمية. ولكن يريدون صالحوون لخدمة أهداف الحاكم، فيحاول حرمانهم من النمو الطبيعى ويحطم قوى الخير فيهم ويستبدلهم بالحسد والتدمير والقسوة. والحقيقة إن انتشار الرغبة فى التدمير واستعباد الآخرين فى عالمنا اليوم. ليست رغبة غريزية طبيعية حتمية فى الإنسان إنما تكون نتيجة لمعاناة وتعاسة من نوع ما، لذلك يجب على المدرس أن يفتح الأفاق أمام الطلبة ويبين لهم أن هناك كثيراً من الأنشطة إلى جانب كونها نافعة فإنها توفر لهم السعادة. كما يجب أن يحرر دوافعهم الخيرة ويمنع نمو الرغبة فى سرقة لذة وسعادة الآخرين، فإن أحداً لم يسرق سعادتهم وبذلك يتحرر الأولاد من كثير من العقد النفسية^(١).

وفى غرس صفة الصدق فى الطلبة يرى رسل "إن من واجب المدرس أن يكون صادقاً فى كل ما يتناوله من موضوعات، لأن اللجوء إلى الكذب وإخفاء الحقائق بدعوى حماية الفضيلة والحفاظ عليها، أمر مرفوض أخلاقياً وذا نتائج خطيرة. ففى معظم البلدان تصنف الآراء والأفكار إلى صنفين: صنف منها يعد صحيحاً، والصنف الآخر يوصف بأنه هدام وخطير، ولا يحق للمدرس عرضه أو مناقشته مع الطلبة، ونتيجة لذلك يسعى الطلبة إلى البحث عن الإجابات خارج المدرسة، وتكون النتيجة أسوأ عندما يكتشفون فى كبرهم زيف ما قد تعلموه فيصابون بالتشوش والجنون. وقد كان من الممكن تلافى مثل هذه النتائج إذا نقلت لهم الموضوعات بصراحة تامة مع التعليق عليها، إن إخفاء الحقيقة من منطلق أن ذلك بحث على اكتساب الفضيلة أمر له مخاطره، لأن الفضيلة التى تنتج عن جهل بالحقائق، تتحطم عند أول احتكاك بالواقع. وأن كان هناك اعتقاد بأن معرفة الأشياء فى حقيقتها يؤدى إلى الكلبية أو الاستخفاف بالدنيا فذلك

B. Russell : Unpopular Essays, The Functions Of A Teacher, (1950), George Allen (V) and Unwin, London, 1976, P.129.

يحدث إذا جاءت المعرفة مفاجئة ومصحوبة بالدهشة والرعب، أما إذا قدمت الحقائق بصورة تدريجية ومن البحث عما هو أفضل وباعتبارها نوع من أنواع البحث العلمى التابع من الرغبة فى البحث عن الحقيقة، فسوف لا يكون لها مثل هذا التأثير^(١).

٢ - المدرس والحضارة :

يقول رسل "لابد أن يكون لدى المدرس تصور لدور الإنسان الحضارى يحمله فى وجدانه وعقله، وليس المقصود بالحضارة التحضر المادى أو التمدين، إنما المقصود بمعناها هنا ما يخص العقل والوجدان، فبالنسبة للعقل أو الجانب المعرفى . يجب أن يكون لدى المدرس معرفة واضحة عن نفسه وبيئته وعن موقع عصره بالنسبة للمعصور الأخرى فى تاريخ البشرية زماناً ومكاناً، وان ينظر إلى دولته ليس باعتبارها موطناً له، ولكن باعتبارها دولة مثل سائر الدول، وأن لكل دول العالم حقوقاً متساوية فى الحياة والفكر والشعور، كما يجب أن ينظر لعصره من خلال الماضى والمستقبل ويتصور مدى غرابة أفكاره لمن سوف يأتون من بعده، كما بدت لنا غرابة أفكار السابقين عنا. كذلك لابد أن تتوفر له معرفة بالمراحل الجيولوجية والفلك ولكن ليست كمعرفة تهدف إلى سحق الروح البشرية، وإنما باعتبارها أبعاد لتنمية العقل ومجال للتأمل.

أما بالنسبة للعاطفة والجانب الوجدانى يمكن للمدرس اكتسابها بالتححرر من النظرة الشخصية والذاتية للأمور والاتجاه نحو النظرة العامة، فيدرك أن الإنسان يمر من ميلاده إلى موته، بلحظات سعادة وتعاسة، وكرم وجشع، وبمواقف تتصف بالشجاعة وأخرى تتصف بالجبين، لأن من ينظر للأمور نظرة كلية، سوف يجد أن هناك أشياء تستحق الإعجاب، وهناك من دعا لحب الإنسانية وساعد الإنسان على فهم العالم، فخلق لنا الجمال والفن ومن فعل ذلك هدف إلى التقليل من القوة والقهر والاستعباد^(٢).

والحقيقة أن انفصال المدرس عن بيئته وتمتعه بالنظرة الكلية الشاملة يخلصه من النظرة الضيقة والتعصب والشعور بالوطنية، وقد يكون ذلك ذا قيمة فى المجتمعات المستقرة سياسياً. إلا أن دور المدرس فى الدول النامية لا يمكن أن يوفر له مثله هذا الموقف الحياذى،

(١) Ibid., PP. 130 - 132.

(٢) Ibid., PP 128-129.

حيث يصبح من واجباته التأكيد على النزعة الوطنية والقومية حتى يساهم فى تجميع الروح العامة للشعب، التى تمكنه من التحرر من الاحتلال أو من الجهل . إن القضايا القومية كمحاربة الاستعمار بأشكاله الاقتصادية والفكرية . والالتزام بقضايا التنمية والاتجاه نحو التخصص العلمى، تمثل أهدافاً يجب أن تكون حاضرة فى عقل ووجدان المدرس . كما أن التأكيد على الوطنية والقومية، لا يؤدى بالضرورة إلى كراهية الدول الأخرى إلى اشتعال الحروب أو نشر الحقد والحسد تجاه الدول الأخرى، بل يمكن أن يكون دافعاً للبناء والتطور لإثبات الوجود . كذلك لابد أن يكون لدى المدرس تصور لمشروع قومى، يحدد فيه دور كل فئة من فئات المجتمع، ينقله لطلابه . فيعون دورهم فى المجتمع والقضايا التى يجب أن يلتزموا بها، ويتطلب ذلك أن يكون لدى المدرس معرفة واضحة لثراث الأمة ونظرة محددة تجاهه، بحيث ينمى منه ما يكون دافعاً لتحقيق مشروعه القومى .

٣ - المدرس والدولة :

يوضح رسل علاقة المدرس بالدولة من خلال عرض لتاريخ المهنة، فىرى " أن التعليم فى المائة سنة الأخيرة أصبح من الخدمات العامة وفقدت المهنة تقاليد العريقة منذ فجر التاريخ، فأصبح المدرس لا يستطيع أن يدرس أفكاره الخاصة وملزماً بتدريس أفكار ومبادئ السلطة، ولقد كان قديماً يفترض أن يكون المدرس على درجة عالية من الثقافة والحكمة، فكانت مهنة التعليم لا تخضع لسلطة معينة، ولم يكن هناك تحكم وإلزام بما يجب تدريسه . والحقيقة أن شعور المدرس بالحرية الثقافية يعد ضرورياً لنجاحه فى تأدية مهمته، طالما أن من صميم عمله تقديم ما يستطيع من معرفة وحكمة، تلعب دورها فى تشكيل رأى العام . ولقد كان قديماً يقوم بذلك دون أذى - باستثناء بعض المعاناة من الطغاة والدهماء - وأما فى العصر الحاضر فإنه يواجه مشكلة جديدة . فهناك أهداف تربوية ترغب الكنيسة أو الدولة فى تحقيقها، فأصبح المدرس ملتزماً ببرنامج معين، وضعه أناس ليس لهم خبرة فى التعامل مع الصغار وأقل منه فى المستوى العلمى، وينظرون للعملية التربوية كنوع من أنواع الدعاية للنظام . إن إشراف الدولة على التربية أمر ضرورى ولكن هناك أخطاء يجب تجنبها، مثل تلك التى شوهدت فى ألمانيا النازية وروسيا . حيث كان لا يسمح للمدرس بالتدريس إلا إذا التزم بمذهب ثابت، ولا يحق له التحدث عن الأحداث الجارية إلا فى نطاق المذهب، كما لا يسمح له بإدخال طرق جديدة فى التدريس وأن يعود الطلبة

على الطاعة العمياء للدولة، ويتبنى وجهة نظر الدولة فى جميع مناقشاته فتتج عن ذلك جهل الأولاد بأمور العالم من حولهم وتعصبهم^(١).

وعن علاقة المدرس بالقومية يقول رسل " من الملاحظ أن العمليات التربوية أصبحت تضع فى اعتبارها اهتماماً بقومية الفرد أكثر من قدراته، الأمر الذى سوف يؤدى إلى تدمير العملية التربوية ويتعارض مع فكرة الثقافة العالمية، التى تعد ميراثاً للإمبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثولوكية، لذا تعتبر الدول التى تنادى بديمقراطية التعليم أفضل من تلك التى تؤمن بالحزب الواحد وإن كان لا بد من الاعتراف بأن هناك بعض المخاطر فى البلاد الديمقراطية، فلن يمكن التغلب عليها، إلا إذا استطاع المؤمنون بالحرية أن يححو كل مظاهر الاستعباد الفكرى. والحقيقة أنه لا بد أن يكون هناك تصور واضح للخدمات التى يمكن أن يؤديها المدرس للمجتمع، ويتم الاتفاق بين حكومات العالم حول تدريس موضوعات معينة، وأن نحى المدرس من "الدجماطية" سواء تلك التى تفرض الرأى الواحد أو تلك التى تنشر الكراهية بين الأقاليم المختلفة، فالأولى كانت فى العصور الوسطى، والثانية كانت أثناء الحروب الدينية، الأولى توقف تطور الحضارة، والثانية تؤدى إلى دمارها^(٢).

٤ - المدرس والسياسة :

ويتناول رسل علاقة المدرس بالسياسة، يبحث صلتها بالأحزاب وبالديمقراطية، فبالنسبة لعلاقة المدرس بالأحزاب يقول رسل " أن من أشد أخطار العصر روح الحزب المنظمة، لأنها إذا أخذت صورة القومية تؤدى إلى الحروب بين الدول أو الحروب الأهلية، لذا يجب أن يكون من صميم عمل المدرس أن يقف محايداً من الأحزاب المتصارعة على السلطة، بأن ينبه الصغار إلى ضرورة فحص الأمور والحكم طبقاً للمزايا والفوائد، وأن لا يحكموا على بيانات الأحزاب حسب قيمتها الظاهرية، ولا ينجاز إلى وجهة النظر الرسمية أو إلى المعارضة، ويناقش كل وجهات النظر مع الطلبة مناقشة علمية، ولذا يجب أن تتوفر له الحماية. فى حالة ما إذا كانت نتائج المناقشة تتعارض ما ترغبه السلطة^(٣).

Ibid., PP. 124-126. (١)

Ibid., P. 128. (٢)

Ibid., P. 129. (٣)

وأما بالنسبة لعلاقة المدرس بالديمقراطية، فإن رسل يؤكد على ضرورة مساهمة المدرس في الدعوة لها، حيث يرى " أنه إذا كان للديمقراطية أن تحيا، لابد أن يلقي الطلبة التسامح وإن هناك أناساً آخرون مختلفون عنه، وإن كان أمراً طبعياً أن ينظر الفرد برعب واشمئزاز، لتلك العادات والتقاليد التي قد تختلف عن عاداته وتقاليده التي اعتاد عليها، إلا أنه يجب أن يتخلص من مثل هذه النظرة. لأنها تؤدي إلى التعصب، الذي يعتبر عدواً للتحضر ومن أهم المخاطر التي يتعرض لها العالم المعاصر. والحقيقة أن دولاً كثيرة تشجع على تنمية الشعور الوطني حيث يلقي التلاميذ ما يكون لديهم الاستعداد العاطفي لقبوله. فالدول الأخرى أقل مرتبة من دولتهم، وعادات وتقاليده هذه الدول أقل تحضراً بالمقارنة بعادات وتقاليده مجتمعاتهم، ويشجع على الهتريا الجماعية، وعلى أكثر الأهواء الإنسانية جنوناً وقسوة، وعلى التلاميذ أن يصدقوا مباشرة وبدون مناقشة كل ما يقال لهم، بدلاً من حثهم على تصديق ما يفكرون فيه وما يخضع لمنطق العقل، لذلك لكي يستطيع المدرس نشر التسامح والدعوة للديمقراطية، لابد أن يأمن تدخل الدولة في اختصاصاته، وأن يشعر بالحرية في أعماقه لأنه مثله كمثل الفنان والفيلسوف والكاتب، لا ينتج إلا إذا شعر بالحرية الذاتية في أن يفعل ما يريد، وأن يعامل كالطبيب فلا تتدخل الدولة في اختصاصاته^(١).

والحقيقة أن إلقاء المهمة التربوية بصعابها على عاتق المدرس، سواء في جانبها العقلي أو النفسي، يشكل صعوبة وخطورة في آن واحد. ففي الجانب العقلي يطالب رسل المدرس بالانفتاح العقلي والنظرة الكلية، وذلك أمر يصعب تحقيقه لأنه يتطلب نوعية خاصة من المدرسين، وإن كان ذلك يصلح في مجال العلوم النظرية الفلسفية والسياسية، فإنه من الصعب تحقيقه في مجالات العلوم الأخرى، خاصة في عصر أصبح التخصص ضرورة حتمية. أما بالنسبة للجانب النفسي إذ يرى رسل أن من واجبات المدرس تحرير الطلبة من العقد النفسية. فإن ذلك يعد ضرباً من الخيال، لأن المدرس نفسه قد يكون مصاباً بها، حتى إن بعض الدول أصبحت لا تأخذ بشهادة المدرس بعد قضائه لفترة معينة في التدريس، كما أن العقد النفسية التي قد يعاني منها الطالب لا تتلاشى بسهولة، وإلا لما كان هناك حاجة للأطباء النفسيين.

Ibid., PP. 13, 135. (١)

فالمدرس يمثل وظيفة من وظائف الدولة التى لها قيودها، ومجرد تصور سماح الدولة له بالحرية الذاتية فى التعبير عن رأيه، يعد ضرباً من الخيال، إلا إذا كان رسل يريد قصر وظيفة التدريس على الثوريين أو على الفلاسفة. كذلك هناك اختلاف بين التدريس كمهنة وبين الفيلسوف أو الفنان، فالتدريس يعنى نقل كمية معلومات معينة فى مجال تخصص معين، وكفاءة المدرس فى عرض ومدى توصيل تلك المعلومات، ويعد ذلك ضرورياً للتطور العلمى، وأما إعطاء المدرس الحرية الشخصية فى معرفة مصلحة طلابه فإنه يتطلب إعداداً خاصاً للمدرس، فالمدرس الحامل لفكر معين لن يستطيع أن يكون محايداً فى عرض وجهات النظر المتعارضة مع فكره، لأن الحياد الفكرى يتطلب درجة عالية من الوعى والحكمة لا تتوفر إلا للفلاسفة، بل أن كثيراً من الفلاسفة على الرغم من تمتعهم بالحكمة، لم يكن فى مقدورهم التخلص من آثار التربية والبيئة فى تشكيل أفكارهم واتجاهاتهم. والحقيقة إن رسل على الرغم من تحديده لدور المدرس كما يرغبه، إلا أنه أهمل تماماً كيفية إعداد المدرس لمثل هذا الدور.

رابعاً: تعقيب :

١ - حلل رسل المؤسسات التربوية تحليلاً دقيقاً يتفق مع دعوته لحرية الفرد، ولم ينظر للتربية نظرة اجتماعية بل نظر لها بالنسبة للفرد ودورها فى تنمية جوانبه العقلية والوجدانية، ولم ير لها دوراً فى تقويم السلوك بقدر تنمية هذه الجوانب وذلك إيماناً منه، بأن إذا كان للفرد أن يعدل سلوكه فلا بد أن يغير معتقداته وعواطفه، ولقد حلل دور الأسرة والمدرسة والمدرس فى تنمية هذه الجوانب العقلية والوجدانية. إلا أنه لم يتوقف عند حد التحليل وتوضيح العلاقات والأدوار لكل من هذه المؤسسات بل حاد على النظرة التحليلية وحاول وضع تصور لما ينبغى أن يكون عليه دور كل مؤسسة من هذه المؤسسات التربوية. لذلك جاء آراؤه أقرب إلى التأملات وأبعد التزاماً عن النظرة التحليلية.

٢ - أما بالنسبة لدور الأسرة فلقد قضى رسل على كل ما يسمى قيمة أسرية فجاء تصوره للأسرة أقرب إلى اعتبارها خير الأسوأ أو الأقل ضرراً للطفل، حيث طالب الآباء بكل شئ ولم يفرض على الطفل واجبات، فالأسرة أشبه بمؤسسة ضرورية لإنجاب الأطفال توفر للطفل كل ما يحقق نموه العقلى والعاطفى دون انتظار للمقابل من جانب الطفل، ولئن كان رسل قد أراد تحقيق حرية الطفل، إلا أنه قد قضى على كل القيم الأسرية كذلك أكد رسل على ضرورة اعتماد التربية داخل الأسرة على العلم ونظرياته

وإهمال القيم الدينية، حتى أنه أهمل تماماً تلقين الطفل القيم الدينية واستبدالها بالقيم الإنسانية والواقع أنه بذلك قد أغفل حقيقة أن الأسرة تقوم فى تكوينها وقيمها على النظام الدينى وتكتب شرعيتها من الأخلاق الدينية، وإن كان رسل قد رغب فى تحرير الأسرة من سيطرة الأخلاق المسيحية لما قد تصوره من نتائج سيئة لمثل هذه السيطرة، فإن ذلك لاينطبق على كل الأخلاق الدينية.

٣ - إن إلغاء رسل للدين من المناهج الدراسية أمر له مخاطره، وإن كان رسل معارضا لتعاليم رجال الكنيسة المسيحية، ولموقفها من العلم، ومؤيداً للدعوة التى ظهرت فى بداية عصر النهضة للتحرر من سيطرة رجال الكنيسة، أو أن إلغاء الدين له مبرراته فى الفكر الأوروبى، إلا أن حذف الدين من المناهج التربوية أمر ليس ما يبرره بالنسبة لكل الأديان.

إن الدين يتعامل مع الجانب الوجدانى للفرد أكثر منه مع الجانب العقلى، وتنمية الشعور الدينى للفرد لايتعارض مع اتجاهه نحو العلم والارتباط بالواقع. فالدين الإسلامى مثلاً لايتعارض مع العلم، بل يبحث عليه ويرشد الإنسان لمناهجه المختلفة، كما أن تنمية الشعور الدينى للفرد غالباً ما يدفعه نحو الخير والشعور بالحرية. ويمكن تدريس الدين كما يدرس الأدب وتجنب المسائل الدينية المعقدة التى قد تسبب للطفل الإرباك والحيرة فإذا ما نضج يمكن تحريره من سيطرة رجال الدين بالناقشة والحوار، كذلك لايرتبط الدين بالضرورة بالخرافة والهروب من الواقع - كما يرى رسل - فإن اتجاه الإنسان نحو الخرافة والهروب من الواقع يكون لأسباب نفسية. كما أن الدين لا يكون بالضرورة نموذجاً للتخلف أو دعوة له. فلقد كان الدين الإسلامى مثلاً، بداية للتقدم والتحضر لمكان الجزيرة العربية. والحقيقة فإن الدين إذا لم يكن ضمن المواد الدراسية فإن ذلك سوف يجعل الطفل يحاول إشباع حب الاستطلاع من الخارج. فيحصل على إجابات غير دقيقة، لذا لابد أن يعامل الدين مثل المواد العلمية الأخرى، أى إشباع حب الاستطلاع، فلا يهمل ولا يكون قائماً على الجبر والإلزام.

٤ - إن توظيف التربية من أجل السياسة له نتائج السيئة، ولقد سعى رسل لتخليص التربية من سيطرة الدولة ومن محاولة فرض اتجاهاتها على الأفراد، فالتربية لابد أن تؤدى إلى تنمية الشعور بالحرية وأن يختار الطفل الاتجاه أو المذهب السياسى، فلا يفرض عليه سواء من خلال المناهج أو من جانب المدرس والحقيقة فإن من الواضح تأثر رسل بما حدث

من حروب فى أوروبا كانت العنصرية أو القومية أحد أسبابها، لذلك أراد توظيف المنهج الدراسى للقضاء على الشعور بالوطنية والتعصب والانتماء للدولة ويقرب من الفلسفة الوجودية فى الدعوة لانتماء الفرد للإنسانية. إلا أنه أراد فى نفس الوقت توظيف التربية للخدمة ودعم النظام الديمقراطى باعتباره بديلاً ضرورياً للقضاء على النظم الفاشية، متجاهلاً الظروف والأسباب التاريخية والاقتصادية التى يكون لها تأثيرها فى نمو هذه الأنظمة. فلا يمكن أن يعد نظاماً سياسياً معنياً مناسباً لكل الدول. إن النظام التربوى للدولة ما لا بد وأن يرتبط بظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى يمكن أن يقدم جيلاً قادراً على النمو والارتقاء بهذه الدولة، وما قد يصلح لدولة نامية لا يصلح لدولة متطورة. أو متقدمة. فالقضاء على الشعور والإحساس بالوطنية فى دولة ما، قد يخدم أعداءها فى مرحلة ما من مراحل نموها. كذلك ليس بالضرورة أن يرتبط تنمية الشعور الوطنى بالحقق والكراهية للدول الأخرى، لأن للشعور الوطنى جوانبه الإيجابية فبدونه لا يمكن تحقيق المشروعات القومية الضخمة التى قد يتوقف عليها مصير الدولة.

الفصل الرابع

معوقات التربية

إذا كان تحديد الأهداف التربوية يمثل تصوراً لما ينبغي أن يكون. فإن نقد وتحليل التربية السائدة في المجتمع تعتبر دراسة للواقع الاجتماعي، وكل فلسفة من الفلسفات التربوية غالباً ما تحدد عدة عقبات تعتبرها معطلة لتحقيق الأهداف التربوية التي ترغب في تحقيقها. وقد تكون هذه العقبات سياسية أو اجتماعية، أو المثل عن ظهورها النظام السياسي أو النظام السائد في المجتمع، أو قد تكون بسبب مفاهيم تربوية خاطئة تظل سائدة دون تحليل أو فحص لنتائجها. كما تختلف الصعوبات والمشكلات التي تعترض التربية السليمة، تبعاً لتصوير الفيلسوف لنموذج التربية السليمة، وتبعاً لظروف العصر ومتغيراته. ولما كان رسل ممثلاً لعصره وما عاناه من سيطرة للنظام الرأسمالي وانتشار للحروب وظهور للقوميات، فقد جاء تصويره للمعوقات التي تعترض التربية أقرب لآراء المدرسة التقدمية في التربية. تلك التي تنطلق من الفلسفة البراجماتية، وظهرت واضحة عند جون ديوى إذ ترى هذه المدرسة أن مصلحة الفرد يجب أن تكون محورياً للتربية^(١). وعلى ذلك فإن كانت آراء رسل أقرب للاتجاه الإنساني في التربية بشكل عام، فإنها أقرب إلى المدرسة التقدمية بشكل خاص.

١ - الدين :

يعتبر "رسل" الدين وتعاليمه والتربية الدينية من العقبات الرئيسية التي تحول دون إنطلاق التربية السليمة، فمثل هذه التربية الدينية تؤدي إلى القضاء على القيم وتعطل نمو الذكاء والقدرات. وتسبب كثيراً من الأمراض النفسية، ويتضامن رسل مع الفكر الماركسي في إلغاء الدين من المنهج الدراسي. ولكن يؤكد اقتناعه بالاتجاه الإنساني في التربية، الذي يرى أن سعادة الإنسان تكون في هذه الحياة وليس هناك حياة أخرى، لذلك لابد أن تكون التربية إعداداً لحياته على الأرض ومحوها تحقيق سعادته. يقول رسل "ترجع الآثار

(١) د. محمد منير مرسى : فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها، ص ٢٨٣

السبب للدين على التربية فى الإصرار على تدريس مذاهب جامدة، وإلى التأكيد على اعتبار مجموعة من القضايا صادقة بالضرورة، على الرغم من أن هذه القضايا تعتبر موضع خلاف ومشكوك فى صحتها، وليس هناك وسيلة للتحقق من صحتها ففضيلة "الخلود" مثلاً من القضايا التى يجب تعليق الحكم فيها لأنها خارج حدود تصوراتنا، إلا أن رجال الدين المسيحى يؤكدون على صحتها. ومثل هذا الموقف يؤدى إلى نتائج ضارة، فقد يعترض الطفل الذكى على فكرة الخلود بلا شك يكون العقاب مصيره. الأمر الذى يجعل الأطفال الآخرين يهابون التفكير فى مثل هذه الموضوعات، وقد يحرم عليهم قراءة الكتب التى تتناولها. والحقيقة أن معظم المثقفين ملحدون إما جهراً أو سراً. لذلك المدرس الذى يتناول الأمور الدينية يكون إما غيباً أو منافقاً أو ضيق الأفق ولا يشجع طلابه على المغامرة الفكرية، الأمر الذى يجعل طلابه تقليديين وهيايين، طالما أن هناك قضايا تعد صادقة بالضرورة ولا يجوز مناقشتها، وجوهر السلوك العلمى التدريب على استنتاج الأدلة والبراهين لتوضيح ما نؤمن به^(١).

ويرى رسل "أن الدين يقدم السلوى والعزاء للمؤمنين، ومن الملاحظ أن الذين يؤمنون بالله والحياة الأخرى يواجهون العالم بقدر قليل من الشجاعة، إذا ما قورن بقدر الشجاعة التى يتمتع بها الشاك، وعلى الرغم مما تقدمه المسيحية من حجج تبرر بها عدم الخوف من الموت، فإنها قد فشلت تماماً فى إكساب المؤمنين بها فضيلة الشجاعة، وسبب ذلك أن دعاة الإيمان من جهة يؤكدون أن هناك أنواعاً من المخاوف لا يجب استنكارها، بل ويحثون على تأكيدها، من جهة ومن جهة أخرى يجعلون الفرد يتسلى ببعض المعتقدات المبهجة كوسيلة لتجنب أنواع أخرى من المخاوف، ويعد ذلك أمراً خاطئاً وليس أفضل وسيلة للحياة. أن الاتجاه نحو الدين يكون إلى حد كبير نتيجة للخوف والمتدين تدينا حقيقة يرى أن هذا العالم لا أهمية له بالمقارنة بالعالم الآخر، ولذا يبرر البؤس فى الحياة بأنه خير وسيلة لاكتساب السعادة فى الجنة^(٢).

والواقع أن افتراض رسل بأن كل المثقفين ملحدون بالضرورة افتراض ليس له ما يبرره منطقياً، بل ولا يلزم عن مقدمات عقلية أو أساس تجريبى واقعى، ومثل هذا الافتراض

B Russell Education, and Social Order, (1932). George Allen and Unwin, (١)
London, 1972, PP. 68-70
Ibid., P 71. (٢)

يجعله يقترب من رجال الكنيسة الذين يرفضون موقفهم فى الزعم بأن هناك قضايا صادقة بالضرورة. كذلك ليس بالضرورة تشابه قضايا العلم مع قضايا الإيمان أو الدين وكما بين "كانط" أن قضايا الإيمان تقع فى مجال مختلف عن مجال قضايا العلم^(١) فالعلم مجاله التجربة والدين يدخل فى نطاق الميتافيزيقا. كذلك تصور الدين وموقف الإنسان من القضايا الدينية يعد تصوراً فردياً إلى حد كبير فقد يكون دافعاً للخوف والاستسلام أو قد كون دافعاً نحو الثورة والشجاعة، وغالباً ما تكون هناك عوامل سيكولوجية تجعل الفرد يميل إلى أى منها. والحقيقة أن رسل اكتفى بالنظرة الضيقة للدين فجاء موقفه أقرب للماركسية فى اعتبار الدين أفيون للشعوب ومسئول عن البؤس فى الحياة.

٢ - الأخلاق الدينية :

يرى رسل "أن التعاليم الدينية أثر سىء على الأخلاق، فالتأكيد على طاعة الكبار. كما تدعو هذه التعاليم يفقد الطفل إرادته الشخصية، وتجعله مطيعاً منفذاً للتعاليم. كما تؤدي إقامة الأخلاق على الدين وتعاليمه إلى أن من يفقد الإيمان ويتحول عن الدين يفقد الأخلاق، لأنه لا يكون لديه أى أسس عقلية بديلة عن الأساس الدينى الذى فقده، فيقيم عليها الفعل الخلقى أو يحدد صفاته، ولذا تقلل الأخلاق الدينية من قدر الأخلاق العقلية، والخطأ الأساسى فى الأخلاق المسيحية أنها تعتبر مجموعة معينة من الأفعال فاضلة وأخرى تصنفها بأنها من الرذائل، بدون النظر للنتائج الاجتماعية لهذه أو تلك وبذلك تصبح شيهة بالأخلاق الخرافية، تلك التى تحرم أفعالاً دون معرفة لأسباب تحريمها. إن الحكم على فعل ما يجب أن يكون طبقاً للنتائج الاجتماعية التى نرغبها، أو تلك التى نريد تجنبها من جراء القيام به، أى يجب أن نقرر فى حدود مايتوفر لدينا من معرفة الأفعال التى سوف تؤدي إلى النتائج المرغوبة ونمدحها، أما الأفعال التى لاتؤدي إلى تلك النتائج، فإنها تستحق الذم. وفى معظم المجتمعات الناجحة تدم الأفعال ذات النتائج الضارة وتمدح تلك التى تؤدي إلى نتائج مفيدة ونافعة^(٢).

(١) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة "كانط" نقد العقل النظرى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢١٧-٢٤٣.

(٢) B. Russell : Education, and Social Order, PP. 72 - 73.

والحقيقة أن رسل فى نفده للأخلاق المسيحية يتضح اتجاهه نحو المذهب النعمى فى الأخلاق، حيث يؤكد ربط الأخلاق بنتائجها فى المجتمع، فالأفعال تمدح وتذم طبقاً لنتائجها الضارة أو النافعة للمجتمع، وبذلك تقرر الأفعال الخلقية وفقاً لمصلحة المجتمع. كذلك يجب ألا تدرس أى فضائل خلقية باعتبارها خير فى ذاتها أو دون تبرير كاف كما تفعل الأخلاق الخرافية، ومن الواضح أن رسل يعنى لفصل الأخلاق عن الدين حتى يمكن أن تؤدى دورها فى التربية وربما كان موقفه هذا بسبب اعتقاده بأن الدين الميحي قد إنهار تماماً، فأراد أن يحمى الأخلاق من الانهيار، فطالب بتأسيها على المنفعة.

٣ - التيارات السياسية:

يتأثر النظام التربوى لمجتمع ما بالنظام السياسى والتيارات السياسية السائدة فى هذا المجتمع، لذلك لابد من استقلال النظام التربوى عن التيارات السياسية سواء على مستوى الدولة أو على مستوى الأحزاب، إذ يرى رسل أن الضرر الذى أصاب التربية من إجراء تدخل السياسة له سيان، الأول طغيان مصلحة المجموعات الحزبية على مصالح الفرد بصورة عامة، والسبب الثانى، الميل إلى المظهر الواحد للشعب أو صبه فى قالب واحد، والسبب الأول أشد خطراً من الثانى فإذا ما تم التغلب عليه، يصبح الثانى سبباً فى شقاء الفرد. والحقيقة أنه أصبح من الأمور التقليدية أن تخدم التربية الدولة أو الدين، أو أنها يجب أن تحقق سيطرة الرجل أو الجنس أو طبقة الأغنياء والموسرين، وإن كانت التربية التى تحقق سيطرة الرجل أو من وجهة نظر الذكور قد اختفت أو لم تعد كما كانت من قبل، فإن التربية ما زالت تستخدم لخدمة أهداف الدولة وأصبحت جزءاً من الصراع من أجل السلطة بين الأديان والطبقات والقوميات، فلا ينظر للفرد باعتباره غاية فى ذاته أو يجب تحقيق مصالحه وسعادته، بل ينظر إليه باعتباره وسيلة لخدمة أهداف سياسية خفية ومقاتلاً فى المستقبل، الأمر الذى يؤدى إلى تناقض بين مصالح الدولة ومصلحة الفرد. لذا ولكى يتم تحقيق نوع من التناسق والانسجام بين كل من مصلحة الدولة ومصلحة الفرد. نحتاج للتقليل من الحروب، ويمكن أن يتم ذلك بتأسيس السلطة العالمية، إذ سوف يصبح تدريس القومية لا يخدم هدفاً ما وتتفى الضرورة للتدريب العكرى والخدمة الإلزامية فى الجيش^(١).

Ibid., PP. 145-146. (١)

وبين رسل أثر الدعاية السياسية على التربية بقوله "تعتبر المدارس أنسب الأماكن للدعاية للقوميات وللمذاهب الدينية، فالدول العظمى تنشر في مدارسها الروح القومية، والدول الشيوعية تستبدل القومية بدعاية مركزة للشيوعية وللاتحاد السوفيتي باعتباره حاميا والمدافع عنها. وغالبا ما تنجح الدعاية في المدارس إلا إذا كان هناك سبب لفشلها كالهزيمة في الحرب مثلا، لأن الغالبية العظمى من الأفراد تميل لقبول الدين الذي تربوا عليه وعلى حب الوطن الذي سكنوه، والدعاية تعتمد على العاطفة - سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، حيث يعرض الموضوع بطريقة تثير العواطف إما لتأييده أو لرفضه، لذلك كانت خطورة الدعاية القائمة على إثارة العواطف في أنها يمكن أن تدافع عن القضايا الكاذبة بنفس المنهج الذي تدافع به عن القضايا الصادقة. إذ تعامل القضية الكاذبة معاملة الصادقة، وبذلك يعطل التفكير المنطقي، بل وأحيانا يكون العقل واعيا بأنواع الدعاية ومدركا لخطورتها، إلا أن وراء العقل مستوى آخر من اللاوعي (اللاشعور) تكمن فيه معتقدات الطفولة فكثيرا ما نعرف أناسا يعتبرون أنفسهم عالمين وأصحاب نظرة إنسانية عامة ويصنفون من المفكرين الأحرار، ولكن نراهم عندما يقترب الموت أو الحرب يتحولون إلى قوميين أو متدينين، ولئن كان ذلك نتيجة لشعورهم بالخوف، الذي يعد أمراً طبيعياً، إلا أن الدعاية تجعل هذا الخوف يعبر عنه نفسه في شيء أكثر احتراماً كحب الوطن أو حب الله. والحقيقة أن أفضل الطرق لمحاربة الدعاية تتمثل في حرية المناقشة والحوار وعرض وجهات النظر المختلفة أمام الأولاد والسماح لهم بحرية الاختيار^(١).

وأما بالنسبة لمخاطر سيطرة النزعة القومية والوطنية على التربية، فيقول رسل "بأن الأولاد في المدارس يتلقوا ضرورة ولائهم للدولة وطاعتها وتنفيذ ما ترغبه الحكومة، ولتحقيق ذلك يدرس الأولاد تاريخاً مزيفاً، فيخبرون عن الأفعال السيئة المشينة التي تقوم بها الدول الأجنبية، ولا يخبرون عن الأعمال السيئة والمشينة لدولتهم فيكون لديهم شعوراً، بأن كل الحروب التي خاضتها دولتهم كانت دفاعية، بينما حروب الدول الأجنبية حروب عدوانية، وعندما تغزوا دولتهم دولاً أخرى، يبرر ذلك الغزو بأنه لنشر المدنية والتنوير وضرورة أخلاقية. وغالبا ما يؤيد المواطنون دولتهم على الرغم من عدم معرفتهم للحقائق. لذلك تعد الوطنية من أسوأ مظاهر العصر الحاضر وأسوأ من كل الشرور التي

Ibid.. PP. 134-140 . (١)

تحاربها الفلسفة التقليدية، لأنها تهدد استمرار المدنية، فمن الصعب تلقين الإنسان المثل العليا والسلوك الفاضل في معهد يعلم الأفراد كيف يقتلون الآخرين. كما أن تعليم الفرد الكراهية والذي يعيد أمراً سيئاً في حد ذاته، يعتبر جزءاً ضرورياً من التربية الوطنية. كما يتضمن تدريس القومية أو الوطنية للطفل بالضرورة مجموعة من القضايا الكاذبة والحقائق المزيفة، مثل أن دولته أفضل الدول، وغالباً ما يعتبر تدريسه الحقائق عن دولته أمر غير قانوني^(١).

يؤكد رسل على ضرورة تخلص التربية من سيطرة النزعة الوطنية فيقترح "إشراف هيئة الأمم المتحدة والدولتين الكبيرتين على كتب التاريخ التي تدرس في جميع دول العالم، ويجب أن يدرس تاريخ العالم بدلاً من التاريخ الوطنى الإقليمي وضرورة التأكيد على الجوانب الحضارية والثقافية أكثر من الجوانب العسكرية والحربية، فإن كان من الضروري تدريس الحرب فيجب ألا تدرس من وجهة نظر المتصر، وأن توضح مساوئها وما يعانیه الأفراد من ألم وتشريد. كذلك لابد أن يدرك الطلاب أهمية العدالة باعتبار أن الشعور بالظلم سبب من أسباب الحروب. كما يجب أن يعرف الأفراد أخطاء دولتهم ويحاطون علماً بكل الحقائق عنها. ويجب تنمية الشعور بوحدة الجنس البشرى وبقيمه وأهمية التعاون الدولي وبضرورة التوقف عن بناء الجيوش التي تهدد بها أنفسنا. فبذلك نتخلص من سبب رئيسى من أسباب الفقر. ونستبدل روح العنف بالإرادة الطيبة. إن الوطنية المنتشرة في كل دول العالم سببها التربية. ولتغييرها لابد من تغيير نظام التربية^(٢).

والواقع أن رسل أراد تخلص الإنسانية من شرور الحرب، وبذلك يتضمن مع الاتجاه الإنسانى فى التربية الذى انتشر بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، ولكنه اعتبر التربية مفتاحاً للحرب والسلام فى العالم، وفى ذلك إهمال وإغفال للعوامل الموضوعية التى تؤدى للحروب كالعوامل السياسية والاقتصادية. كذلك ليس بالضرورة أن تؤدى تنمية الوطنية إلى حب السيطرة والعدوان والكراهية والكذب، وعلى افتراض صحة هذه النتائج فإن تنمية الروح القومية والوطنية ضرورية لإحياء ثقة الشعب نفسه. وإن كان يمكن تبرير رفض رسل للقوميّات ولسيطرتها على التربية، بأنه رد فعل لما قد عاناه المجتمع

Ibid., PP. 87 - 88 (١)

Ibid., PP. 89 - 90 (٢)

الأوروبي من شرور الدعوة للقوميات وما سببته من حروب وكرامية بين أفراد القارة الأوروبية، إلا أن التربية القومية تعتبر الوسيلة المشروعة والضرورية لدول ما زالت تعاني الاحتلال والتخلف الاقتصادي. كذلك فإن اقتراح "رسل" بقيام السلطة العالمية، وإلى جانب اعتباره يعد خروجاً من المنهج التحليلي الواقعي ومع موقف الفيلسوف التحليلي الذي يحلل دون أن يفترض، فإن مثل هذه الدعوة للسلطة العالمية تكرر سيطرة الفكر الأوروبي والدولتين العظميين على العالم، ولما كان رسل رافضاً للنظام السياسي والتربوي للاتحاد السوفيتي فإنه يترك بذلك السيطرة على العالم للنظام الرأسمالي، كذلك تشابه هذه الدعوة للسلطة العالمية بدعوة الكنيسة للمسيحية والولاء لسلطة الدين وإن كان الدين عند رسل هو دين الإنسانية.

٤ - المدارس العامة : (النظام المدرسي) :

لقد أدى انتشار النظم الديمقراطية إلى ظهور نظام المدارس العامة، ويرى رسل أن هذا النظام يمثل عقبة أمام التربية السليمة، إذ يقول رسل "ان نظام المدارس العامة يؤثر على نمو الذكاء العلمي، حيث يتم اختيار المدرسين حسب قدراتهم الجسمية وحسب توافقيهم مع نموذج سلوكي أخلاقي ديني محدد، الأمر الذي يجعل الأذكاء منهم غير قادرين على الاستمرار في سلك التدريس. ويطلب من المدرس حث الطلبة على الانشغال الدائم. حتى لا تتوفر لهم فرص للخطيئة الجنسية. أو لارتكاب المعاصي، فلا يسمح للطلاب المجتهد بحرية التفكير أو تحقيق الاستقلال الفكري. ويلزم الطالب بدراسة منهج يحوى قدراً كبيراً من المعلومات، فلا يتوفر له وقت فراغ أو فرصة لتعلم أى شئ جديد من الحياة العملية^(١).

كما يظن رسل "ان نظام المدرسة العامة يؤدي إلى تعاسة الفرد وميله للقوة والعنف ويرجع ذلك إلى تطبيق نظام الفصل بين البنات والأولاد، وإلى تدريس تعاليم أخلاقية مترممة، فالولد يفقد جانباً من المحبة التي كان يتلقاها من الأم أو الأخت فتصبح الأم موضوعاً معبوداً أو مرغوباً على المستوى اللاشعوري وأقرب إلى الرغبة المكبوتة، وكل مازادت حدة هذه الرغبة، يزداد احتقاره للمرأة، وفي فترة المراهقة يؤدي مثل هذا النظام

(١) Ibid., PP. 51 - 52 .

إلى ميل الشباب إلى ممارسة العادة السرية أو اللواط أو كليهما معاً، على الرغم من اقتناعه التام بأن ذلك من المعاصي. كذلك فقد ينظر الشاب للأم كامرأة تعطى المحبة دون الاتصال الجنسي، ومثل هذا التصور يؤدي إلى تعاسة الزواج وإلى احتقاره لأي امرأة يكون الاتصال الجنسي بها ممكناً. والتعاسة التي تنتج من تلك الحالة النفسية تؤدي للقوة فتجعل من السيطرة على الآخرين مصدراً وحيداً للسعادة، ولذا تقوى عقيدة الاستعمار بالحرمان الجنسي^(١)، وتمثل معوقات التربية في نظام المدارس العامة في الأمور التالية:

أ - التربية الديمقراطية :

يحلل رسل التربية الديمقراطية قائلاً: " تقوم الديمقراطية على نوعين من التصور الأول منهما، عندما نقول : "أنا مثلى مثلك، وصالحك صالحى" وذلك أمر محمود، أما التصور الثانى عندما نقول : "أنت لست أفضل منى" فهنا تصبح الديمقراطية نوعاً من أنواع القهر وعقبة أمام المواهب الشاذة، ومعنى ذلك أن الديمقراطية تعتبر سليمة وحسنة إذا أدت إلى احترام الإنسان لنفسه، وسيئة وشريرة إذا أدت إلى اضطهاد الآخرين أو القلة الموهوبة، ولذا يجب أن يتوفر تعليم خاص لأصحاب المواهب لأنه مع نمو المجتمع وزيادة الاعتماد على المخترعات العلمية والفنية، تصبح هناك حاجة إلى البيروقراطية وإلى تربية هؤلاء الذين سوف يقومون بهذه الأعمال الفنية. وإلى توفير تعليم خاص لمن يتمتعون بمواهب خاصة كذلك لأبد من احترام من يتمتع بذكاء فطرى، فيدرس له منهج دراسى يوسع مداركه العقلية ويوفر كل ما هو ضرورى للحصول على المعرفة. كما يجب عدم التفرقة فى أنواع المعرفة بين ما هو نافع وما هو كمالى، فكل أنواع المعرفة لها نفس الدرجة من الأهمية^(٢).

ب - المناهج :

وفى نوعية المناهج، يرى رسل "أنه غالباً ما يكون المسئولون عن عملية وضع المناهج غير ممارسين لمهنة التدريس، إذ يتجهون لحشو المناهج بمعلومات زائدة تافهة، مما يضطر المدرس إلى محاولة إقناع الطلبة بأهمية هذه المعلومات وفى الوقت الذى ليس لها مثل هذه

(١) Ibid., PP. 52 - 53 .

(٢) Ibid., PP. 110-112 .

الأهمية، كذلك قد يكون الزمن المحدد لمنهج غير كاف أو غير متناسب مع طبيعة المواد، الأمر الذى يؤدى إلى الإجهاد العقلى والبدنى للطلاب، فزيادة مقدار التعليم عن الحد المناسب تفقد الطالب الرغبة التلقائية فى المعرفة. والثقة فى النفس والصحة. لذلك يجب أن يركز المنهج على المعلومات المناسبة والنافعة. كما يجب أن يؤدى إلى الإقلال من التوتر الانفعالى والعاطفى. ويتم ذلك بالحد من الاختبارات وعدم التركيز على أهميتها، وحذف المعلومات التى تدرس من مطلق أنها يجب أن تدرس. بالرغم من أنها لا تخدم هدفاً عملياً. إن التعليم العالى يجب أن يؤسس على تنمية روح البحث والاستفسار. وليس على كمية من المعلومات والأسئلة ذات الإجابات المحددة فذلك يجعل الطالب يركز على حفظ القدر الكافى من المعلومات التى تمكنه من تخطى الامتحان وتقضى على مقدرته على الحكم وعلى المبادأة^(١).

جـ- الإدارة المدرسية :

يشكل نوع معين من المدرسين ونظام الإدارة عقبة أمام التربية السليمة. ويرى رسل "أن هناك نوعين من المدرسين، الأول يحب الأولاد ويسمح بالحوار ومتحمس للمعرفة فينقل حماسه لهم. والثانى يميل إلى السيطرة فتصبح مهنة التدريس نوعاً من التسلط الذى يفقده المدرس خارج المدرسة، ويقسم الطلبة إلى مشاغبين يحب عزلهم، أو إلى متظمين ضعاف من الناحية العقلية والعلمية، فالطالب الذى يميل للحوار يتبعد ويعتبر من المشاغبين، ومثل هذا النوع من المدرسين يرقون ويحصلون على أعلى المناصب الإدارية. وكذلك من الملاحظ وجود ميل واتجاه فى العالم اليوم إلى التنظيم والإدارة، الأمر الذى قد يسبب ذلك الاهتمام بالناحية التنظيمية إهمالاً للناحية المهنية. إذ ينظر ناظر المدرسة إلى الطلبة باعتبارهم مواد خام يجب تصنيفها وتنظيمها، فيميل إلى الإحصائيات التى تتم عن بُعد ويعتمد على اختبارات الذكاء، ويقسم الطلبة إما إلى شواذ أو أسوياء فلا يوجد وسط. كما يرغب المسئول عن التنظيم فى المدرسة جعل الأولاد متشابهون، فيحاول صبه فى قالب واحد كتوحيد الزى مثلاً، فإن ذلك يحقق سهولة فى عمله، كما يحاول تصنيفهم حسب العمر والجنسية والديانة القومية والحقيقة أنه على الرغم من أهمية التنظيم والإدارة

Ibid.. PP. 110-112 . (١)

فى عالم اليوم واعتبارهما أمراً ضرورياً فى حياة المواطن إلا أن ذلك يجب أن يتحقق بدون تقييد لدور الفرد واستقلال شخصه فى الحكم والقرار والمبادأة^(١).

والحقيقة أن نقد رسل لنظام المدرسة العامة وبيان مساوئها، يعد نقداً موضوعياً وأقرت به معظم الدراسات التربوية المعاصرة، إلا أن تحليله لعملية الفصل بين الولد والبنت وأثارها السيئة على النواحي النفسية والعلمية، انتهى إلى نتيجة مؤداها أن هذا الفصل يؤدى إلى تنمية النزعة الاستعمارية، ولئن كانت معظم الدراسات المعاصرة فى التربية بدأت تقرر أهمية الاختلاط بين الجنسين فى المدارس، فإن ذلك لا يمكن تحقيقه فى بعض المجتمعات، لأن لها عاداتها وتقاليدها ودينها وطبيعتها التى لا تسمح بمثل هذا الاختلاط. كذلك ليس بالضرورة أن يؤدى الفصل بين الجنسين فى العملية التعليمية إلى تقوية عقيدة الاستعمار فالمجتمعات الأوروبية الغربية، على الرغم من أنها أقرت الاختلاط، إلا أنها لم تتخلص من العقيدة الاستعمارية، لأن الرغبة فى العدوان والسيطرة تكون فى الغالب سببها التركيب النفسى للفرد والأسباب الأخرى التى عددها الفردويون أو السلوكيون، فقد يتلقى فردان نظاماً تربوياً واحداً فى مدرسة عامة، وينشأ كل منهما مختلفاً تماماً عن الآخر. كذلك فلئن كانت دعوة رسل لعدم الفصل بين الجنسين تتفق مع موافقة السياسية والاجتماعية ودفاعه عن حرية المرأة وحقوقها، فإن مبرراته لعدم الفصل فى مجال التربية ليست مبررات علمية موضوعية.

٥ - مفاهيم خاطئة:

هناك بعض المفاهيم التى يعتبرها القائلون بالتربية مفاهيم أساسية فى حد ذاتها، دون النظر لنتائجها، ومن هذه المفاهيم اعتبار كل ما يتصل بالجنس رذيلة، والتشجيع على أهمية المنافسة وأخرى غيرها. ومثل هذه المفاهيم تشكل عائقاً أمام التربية السليمة.

أ - النظرة للجنس:

كان لنظرة الأخلاق التقليدية والأخلاق المسيحية التى سادت أوروبا فى فترة العصور الوسطى والعصر الفكتورى وبداية عصر النهضة، تأثير كبير فى نظم التربية. كما كان لظهور مدارس التحليل النفسى، وشيوع نظرة فرويد للجنس ودوره فى ظهور كثير من

(١) Ibid.. PP. 149 - 151

الأمراض النفسية والاجتماعية. أثر هام في الدعوة للحرية الجنسية ومحاولة التحرر من الأخلاق التقليدية. ويرى رسل " أن التربية الجنسية تعاني من مشكلات سببها ضيق أفق وجهل القائمين والمنشولين على التربية، كما نلاحظ أن غالباً ما تعتمد في التربية على مربيات ومدرسات غير متزوجات، ينظرون للجنس نظرة خرافية بعيدة عن العلم، وتستفد على تصور خاطئ للجنس ودوره في الحياة وغالباً ما تلجأ المربية أو المدرسة لتهريب الطفل من لمس أعضائه وتهدهد بقطعها، فيصاب بالرعب عند رؤيته لفتاة عارية تقاربة في العمر، لأنه يتصور أن العقاب قد وقع عليها، وقد يصاب بأمراض عصبية ونفسية في المستقبل. كذلك إقناع الطفل بأن هناك أنواعاً من المعرفة غير الممتعة توصف بالخيرية وتعتبر من الفضائل فيصح الفضول العلمي معارضاً للفضيلة. لأنه يرتبط بالمتعة دائماً. كما أن حجب المعلومات الجنسية عن الطفل وشعوره بتغير في نبرة الإجابة على الاسئلة الجنسية، يجعله يدرك كذب الوالدين فيفقده الثقة فيهما حتى في المسائل الهامة والعلمية^(١).

كما يظن رسل " أن من مساوئ النظام التربوي الحالي (في أوروبا) أنه يؤدي إلى غرس خوف خرافي في الأطفال، فيصبحون في كبرهم هيايين ومنافقين، ويتكون لديهم اقتناع بأن الموضوعات الجنسية من الفواحش، والفضول العلمي من الرذائل. فعند بلوغ الشاب مرحلة المراهقة، نجده إما متجهاً نحو البغاء أو يظل في عفة كاملة، واتجاه الشاب نحو البغاء يعرضه للإصابة بالأمراض الجنسية التي غالباً ما تستفحل للخجل من علاجها، كذلك إذا مارس الشاب أول مرة الجنس بدون عاطفة، فسوف ينظر لزوجته في المستقبل كمثل نظرته إلى القديسة أو إلى العاهرة. وكلتا النظريتين لاتؤديان للسعادة الزوجية. وقد يتجه الشاب لمزاولة الاستمناء. الأمر الذي يجعله يميل للانطواء وعدم المغامرة وأحياناً يصبح غير قادر على الممارسة الطبيعية للجنس، وقد يتجه الشاب لممارسة الشذوذ الجنسي. الذي يعتبر خطراً وضاراً. إذا لم يتوقف عنه الشاب في الوقت المناسب^(٢).

(١) Ibid., PP. 75 - 80 .

(٢) Ibid., PP. 80 - 81 .

ويرى رسل " أن كل المشاكل التي يعاني منها الشباب، تنتهي بالسماح بالاختلاط والزواج بدون إنجاب بين طلبة وطالبات المرحلة الجامعية، ولكي تخلص من تأثير الأخلاق الجنسية التقليدية على التربية وعلينا أن نعرف كيف نوفق بين الإصرار على فضيلة النساء التي تعتبر ضرورية لنظام الملكية والميراث، وحيث لا يتوقع أن يعمل الرجل ليعول أولاد غيره وبين حرية المرأة ومبدأ المساواة بين الجنسين، وإن كان هناك شك كبير في إمكانية حل مثل هذه المشكلة عن طريق قيام الدولة بدور الأب لأنه من الصعب تصور نظام تختفى فيه الأبوة، وبالرغم من هذا التناقض، إلا أنه يمكن أن نحصل على حلول، من خلال إقرار مبادئ أخلاقية عامة تعامل الجنس معاملة علمية^(١).

والحقيقة أن رسل يبدو متأثراً بآراء مدرسة التحليل النفسى التي ترد كل ما يعاني منه الفرد من أمراض نفسية إلى الأخلاق الجنسية المتزمتة والنظرة المحرمة للجنس. كما وضع أنه قد حاول نقل نظريات مدرسة التحليل النفسى من مجال العلاج إلى مجال التربية، فعلى الرغم من إدراك رسل لعيوب مدرسة التحليل النفسى التي تمثل في ردها كل المشكلات النفسية لعامل الجنس. إلا أنه اتجه بالتحليل وجهتهم. حيث ربط انخفاض مستوى الذكاء والتحصيل العلمى بالجنس. واعتبر الجنس سبباً في فشل العلاقة بين الآباء والأبناء وفي ظهور ازدواج الشخصية. والحقيقة أن هذا الربط يعتبر ربطاً صورياً أكثر منه مادياً ويعتمد على الانتقال من الأمثلة الجزئية الشاذة إلى التعميم، وعلى خلط بين علم النفس الشواذ وعلم النفس العام. فعلم النفس الشواذ يدرس الحالات المرضية وعلم النفس العام يدرس سلوك الأسوياء والحقيقة أن الجنس له دوره الرئيسى فى التربية ويعتبر من الموضوعات التي تمثل للمربي مشكلة، إلا أنه لا يمكن الجزم بأن ضعف القدرة على التحصيل العلمى ونمو الذكاء يعود بالدرجة الأولى إلى التربية الجنسية. كذلك لم تخرج النتائج التي توصل إليها رسل كحل للمشكلة الجنسية فى التربية عن الإطار التقليدى. لذا يقع فى التناقض، حيث ينادى بالإباحة الجنسية، وفى نفس الوقت يطالب بوضع الضوابط كالزواج بدون أطفال- وفى ذلك لا يختلف عن ضوابط الأخلاق التقليدية كما سوف تفرض الإباحة الجنسية واقعياً قيام الدولة بدور الأب. الأمر الذى يرفضه رسل لأنه

يرى الإبقاء على دور الأب حماية لنمو المدنية وحماية الفرد من تسلط الدولة، لذلك فإن كان للأخلاق التقليدية مضارها فإن للحرية الجنسية مخاطرها.

ب- التأكيد على التنافس :

من المفاهيم التربوية الخاطئة والتي ما زال التربويون يؤمنون بها، التأكيد على قيمة المنافسة، حيث يرى رسل أن من آثار المنافسة على التربية. أنها تجعل التنافس أكثر قيمة من التعاون، وتبدأ المنافسة في الفصل الدراسي للحصول على المنح الدراسية ثم تنقل بعد ذلك للحصول على الوظائف وما زالت لها قيمتها في الأعمال الحرفية والخاصة، ومن مساوئ المنافسة في التعليم أنها تدفع أفضل التلاميذ إلى بذل الجهد وإجهد نفسه الأمر الذي يؤدي إلى الإصابة بالإجهاد العقلي ويقتل الخيال ويعل الصحة. فالتعليم الزائد عن الحد والإجهد في المذاكرة يقتل الخيال عند الشباب، لأن الخيال لا يقبل التنظيم وينمو في الحرية الفكرية. فالخيال إحساس فردى لا يوصف بالصدق أو الكذب، وغالباً لا يشجع المدرس عليه. خاصة إذا كانت المنافسة على التفوق العلمى تتطلب مقدرة علمية جافة ومتميزة. ولقد اقترن الإجهاد العقلي بالديمقراطية وتحقيق مبدأ تكافؤ الفرص، فأصبح هناك اتجاه بأن الأفضل علمياً ينال منحة دراسية ويحصل على وظيفة جامعية. الأمر الذى يجعل أولاد الفقراء يبذلون قصارى جهدهم للحصول على هذه المنح حتى تفتح لهم أبواب الجامعة ويؤمنون الفقر، فيؤثر ذلك الإجهاد العقلى على حالتهم العقلية والصحة والعاطفية، كذلك إحساسهم بأن مصيرهم معلق على اختيار ما، يجعل مجرد تصورهم الفشل يصيهم بالهتريا، فيعملون بجد وإخلاص وإجهد زائد عن الحد. فيحطمون قدراتهم العقلية قبل أن ينهوا تعليمهم^(١).

والحقيقة أن رسل يتفق مع أنصار المدرسة التقدمية فى اعتبارهم الحب والمشاركة أنسب للتربية من المنافسة. والسعى وراء النجاح الفردى. لأن التعاون ينمى الجانب الاجتماعى وهو الجانب الأسمى فى الطبيعة البشرية، فالتربية مثلها مثل الحياة المتحضرة عبارة عن مجموعة خبرات، والطفل يحصل من العمل مع غيره على فائدة أكبر وسعادة أعظم أكثر مما لو عمل بمفرده، وترفض التقدمية وجهة النظر "الداروينية" للمجتمع، تلك

Ibid., PP. 101 - 106. (١)

التي طورها "هربرت سبر" وترى أن المجتمع يحاكي الطبيعة ويشجع على المنافسة. حتى تكون جائزة الفوز من نصيب من هم أحق بنيلها^(١). فلقد ثبت أن تنافس الحيوانات في الطبيعة حالة مؤقتة ويتم عندما تكون جائعة. ويطلب رسل كما فعل التقدميون بالتحللص من المنافسة في العملية التربوية لما لها من آثار مدمرة على الفرد والمجتمع. إلا أن المنافسة ليست في كل استخداماتها في العملية التربوية تعد سيئة وضارة لأنها قد تكون باعثاً على العمل والجد والاجتهاد إذا أجاد المدرس استخدامها، فالمدرس الناجح هو الذي يستطيع أن يوظف التنافس من أجل إثراء المادة العلمية. لذلك فإن المنافسة كغاية في ذاتها لها مضار خطيرة. أما إذا تم توظيفها من أجل خدمة هدف تربوي محدد فإنها قد تكون ذات نفع ومفيدة في العملية التربوية.

٦ - تعقيب وخاتمة:

١ - لقد جاءت آراء رسل في التربية، على الرغم من نظراته التحليلية لأهداف التربية في الحضارات المختلفة، وتحليله ونقده لنظم التربية والتعليم، أقرب إلى الفكر التأملى، وتصور لتربية أفضل ومجتمع أفضل، كذلك من الواضح أن آراءه لا يمكن تصنيفها بأنها مثالية أو واقعية. لأنها جاءت مختلطة، فأحياناً نلمس الواقعية والنظرة التحليلية في مواقف النقدية، وأحياناً أخرى نلمس اقترابه وتأثره بالفلسفة المثالية وتصوره لما ينبغي أن يكون، وتتفق الأسس الفلسفية للتربية عند رسل إلى كبير مع الاتجاه البراجماتى واتباع المدرسة التقدمية وآراء جون ديوى في التربية، إذ ترى هذه المدرسة أن التغير هو أساس الحقيقة والتربية عملية تطور. ولا بد أن يغير التربويون أساليبهم وسياساتهم في ضوء المعارف الجيدة والتغيرات التي تحدث في البيئة كما تؤكد على ديمقراطية التعليم وأن ينبع المنهج من احتياجات التلميذ والمجتمع. والمعلم موجه وليس رمزاً للسلطة وأن التعليم عملية نشطة إيجابية تؤدي إلى تغير السلوك^(٢)، كما يقترب رسل من المدرسة المثالية التي ترى أن هدف المدرسة تحقيق الذات والشخصية المتميزة لكل فرد. وإن كان لم يتفق معها في اعتبار الأهداف التربوية قاصرة على غرس قيم الحق والخير والجمال والسعى لتكوين

(١) د محمد منير مرسى، فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها، ص ٢٩٢

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٢٨٥

المثال. إلا أن رسل يؤكد مثل المثالية على دور المدرس وأهميته، ولكنه لم يقصر العملية التربوية عليه كما تفعل. كما أنه قد رفض كل ما يتعلق بالجوانب الروحية التي تسعى المثالية لتنميتها.

٢ - اعتبر رسل الهدف الأساسي للتربية تحقيق الحرية الإنسانية، ويبدو متأثراً إلى حد كبير بآراء المدرسة الوجودية في التربية حيث تدافع الوجودية عن مقولة الحرية وتنادى بسقوط الإلزامات السياسية والاجتماعية وتطالب بعدم تقييد الفرد بأى نوع من أنواع الإلزام الخارجى، وتكتفى بالإلزام الداخلى والوعى بالذات وتترك للإنسان حرية الاختيار، وارتبطت الوجودية بمدارس التحليل النفسى، فطالبت بعدم الخجل من الغرائز الإنسانية وشجعت على الفردية والإرادة المبدعة الخلاقة. ورفضت صنع المواطنين بناءً على مواصفات سابقة، وكل الإحصائيات التي تتعامل مع الأفراد باعتبارهم مواد خام، وليس موجودات حرة متميزة. ولذلك أكدت على أهمية الأسرة في العملية التربوية^(١). وعلى الرغم من اتفاق رسل مع الوجودية في المطالبة بحرية الفرد. إلا أنه أدرك أهمية توافق الفرد مع المجتمع. لذلك أكد على أهمية التعاون والنظرة الودية للآخرين.

٣ - وظهرت مبادئ الوضعية المنطقية في دراساته لبعض المفاهيم التربوية السائدة والشائعة. حيث تناول بعض هذه المفاهيم بالتحليل اللغوى مثل الخبرة والذكاء والتحصيل، فطالب بتخليص التربية من بعض المفاهيم التي تشبه الفئات الفارغة والتي ليس لها مضمون محدد، فالفكرة الصادقة هي التي يكون له مدلول واقعى ويمكن التعبير عنها بدقة وبألفاظ محددة ويحمل ذات معنى. إلا أن رسل لم يلتزم بموقف الفيلسوف الوضعى المنطقى الذى يقوم على الفحص والتحليل دون رفض أو تأييد آراء معينة، أو إقامة مذاهب وأنساق فلسفية ويحصر مهمته في نطاق التحليل اللغوى. بل سعى لإقامة وبناء تصوراته للنظام التربوى الذى يرغبه ويرتبط بفلسفته الاجتماعية وموقفه من حرية الإنسان.

٤ - جاءت آراء رسل في التربية بوجه عام مطابقة للاتجاه الإنسانى في التربية. ذلك

(١) د. سيد إسماعيل على، دراسات في فلسفة التربية. عالم الكتب، ١٩٨١، ص ٤٤-٥٥.

الاتجاه الذى يعتبر خليطاً من الفلسفات التربوية . حيث أكد على جعل التربية فى خدمة الفرد وتطور المجتمع . فالنظام التربوى الذى يسود مجتمعاً ما يجب أن يهدف لسعادة الفرد فالسعادة هى الغاية القصوى ، كما كان فى نقده للنظم التربوية المختلفة . يحاول تقييمها بناءً على معيار مدى تحقيقها لسعادة الفرد ، أما بالنسبة للمجتمع فيجب ألا يعتبر التربية وسيلة لفقر أفرادهم وصيهم فى قوالب ثابتة جامدة ، أو لفرض نظم سياسية أخلاقية معينة ، إنما يجب أن تكون التربية وسيلة لتحقيق تقدمه وتطوره ، وافتتاحه على المجتمعات الأخرى ، وأخذها بأساليب ونظريات العلم المعاصرة . فالتربية التى لا تعطى للعلم مكانة تربية فاشلة ، أما بالنسبة للعقائد السياسية أو الأخلاقية ، فالفرد عليه أن يختار من المذاهب السياسية ما يراه جيداً بالاختيار ، ولا تفرض عليه كذلك العقائد الأخلاقية التقليدية ، ولا يجب إلزام الفرد بها . لأنها فقدت نتائجها وأصبحت مصدراً للتعاسة ومعوقة للتربية السليمة ، ويجب قيام أخلاق علمية عقلية تحكم على ما هو فاضل أو رذيل من الأفعال طبقاً للنتائج .

٥ - يتفق منهج رسل فى دراسة التربية مع منهج فلسفة التربية بصورة عامة ، من حيث التزامه بوصف وتعريف الظاهرة ، وتوضيح جذورها وتفاعلاتها ، كذلك من حيث التأمل وتنظير المسائل المختلفة على أنها أجزاء من كل كبير (الطبيعة الإنسانية ، المنهج ، الوسائل) ومحاولة فهم سلوك المتعلم والمعلم بدراسة للأصول الفلسفية لهذا السلوك . كما لجأ رسل إلى التحليل والتركيب . حيث حلل الأصول والأفكار والمفاهيم الواردة فى سائر النظريات التربوية ، وحكم على مدى ملاءمتها ومناسبتها للعصر الحاضر ، كما اتجه إلى محالة التركيب حيث تصور ما ينبغى أن يحققه النظام التربوى ودور كل مؤسسة تربوية فى هذا النظام . وبذلك تشابه دراسته فى التربية مع كل الفلسفات التربوية باستثناء الوضعية المنطقية . كذلك اهتم رسل بالنقد والتطبيق فلقد اهتم بنقد تطبيقات النظام التعليمى (فى إنجلترا وأمريكا) ثم خرج من دائرة التفكير إلى دائرة التنفيذ حيث حاول كشف الواقع وتوجيه الأنظار نحو الحل والعلاج .

دار رسل فى فلك توظيف التربية ، حيث وظفها لخدمة السياسة وتحقيق سعادة الفرد ، فلقد تصور رسل النظام التربوى الذى يحقق النظام السياسى الذى يرغبه ودعوته للديمقراطية وللحرية الإنسانية ، وعلى الرغم من رفضه الأنظمة التى توظف التربية لخدمة

أهداف سياسية أو لخدمة سلطة ما ، فطالب بالنظر للإنسان كغاية وليس كوسيلة . إلا أن نظامه التربوى كان أيضاً فى خدمة أهدافه السياسية وإن كان من منظور مختلفاً ، إلا أنه يدور فى إطار توظيف التربية لخدمة الآراء السياسية . أما بالنسبة لاعتبار التربية وسيلة لتحقيق سعادة الفرد . ولما كانت السعادة نسبية إلى حد كبير ، وليست صفة موضوعية يمكن التعامل معها ، أو ندعى بأن هذا النظام التربوى أو ذاك يمكن أن يحققها . فإن توجيه التربية وبناء فلسفتها على مطلب تحقيق السعادة الفردية ، فيه إهدار لقيمة التربية فى حد ذاتها وإفراغ لمضمونها ، وتجعلها فى خدمة السعادة الحسية الفردية . والواقع أن ربط العملية التربوية بمفهوم السعادة أمر صعب للغاية ، لأن السعادة مفهوم يصعب تحديده وتصوره ميتافيزيقياً ، وليست ظاهرة موضوعية يمكن قياسها وتحليلها بالطرق العلمية ، الأمر الذى سوف يجعل من الصعب تحديد النظام التربوى ، طالما أن الحكم على صلاحيته يرتبط بمدى تحقيقه للسعادة .

٧ - اعتبر رسل التربية والنظام التربوى هو المسئول عن تكوين المجتمع المسالم ، الذى يتجه أفرادهُ نحو المحبة والتعاون ، أو عن صبغ المجتمع بالقسوة واتجاه أفرادهُ إلى العدوان والرغبة فى السيطرة ، فالواقع أن النظام التربوى إذا كان مسئولاً إلى حد ما ، فإن اعتباره المسئول الأول أمر فيه إغفال لعناصر وعوامل أخرى كثيرة سياسية واجتماعية واقتصادية . يكون لها دورها الرئيسى فى جعل مجتمع ما متجهاً نحو السلم أو وجهة الحرب والعدوان ، كذلك لا يمكن اعتبار التربية هى المحور الأساسى أو العامل الأول والآخر الذى يؤدى إلى تقدم المجتمع ، فهناك محاور أخرى لها دورها الهام فى تحقيق التقدم الاجتماعى والتغير المطلوب ، لذا فإن رسل يتصور مثل كثير من الفلاسفة أن التربية هى المفتاح الحرى لكل شىء ولقد ثبت فشل هذا التصور ، فالتربية جزء من كل .

٨ - لقد أخرج رسل الدين من المواد الدراسية من التربية بوجه عام . فرغب فى تخلص التربية من سيطرته وسعى لاستبداله بالعلم ، ولئن كان ذلك يتفق مع موقفه من الدين المسيحى واقتناعه بأهمية العلم . إلا أنه ليس بالضرورة التضحية بالدين وبالجوانب الروحية من أجل تحقيق الحرية والسعادة للإنسان . كذلك لا يعد النظام التربوى المستقل عن الدين بالضرورة أفضل النظم . والواقع أن رسل أغفل النظرة الموضوعية الواقعية فكل مجتمع له قيمه ومعتقداته وتراثه ، الذى يمثل عمقاً حضارياً للفرد ، وله أيضاً أوضاعه

السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحكم علاقاته وإن كان موقف رسل من الدين يتناسب مع طبيعة تطور الحضارة الأوروبية وقيمها وظروفها، إلا أنه ليس مناسباً للحضارات الأخرى كالحضارة العربية مثلاً. سواء بالنسبة لطبيعة الدين أو للمتغيرات الاجتماعية. إن إهمال الدين وإخراجه من مجال التربية واستبداله بالعلم يغفل الجانب الذى يخرج عن طبيعته الحية، ويجعله يسمى نحو الرقى والتحضر، ويجعل للإنسان هدفاً أسمى يسمى لتحقيقه. كما أن أهداف رسل التربية جاءت تشبه الأهداف الدينية التى سبق أن رفضها واعتبرها أهدافاً غيبية واستبدلها بأهداف إنسانية. ووجه الشبه أن أهدافه تفتقر للتحديد والموضوعية، فلقد طالب بتحقيق السعادة والحرية والمفاهيم الإنسانية ومعاملة الفرد كغاية وليس كوسيلة. وكلها أهداف تحتاج للتحديد والواقعية والموضوعية.

٩ - والحقيقة أن التربية فى العصر الحاضر بدأت دخول المجال العلمى وابتعدت عن المجال الفلفى، فقد أصبحت علماً له أسسه ومناهجه وأهدافه، فلم تصبح التربية نتاجاً للفلسفة، كانت من قبل. أو إنتاجاً لفكر فيلسوف يتصور ما ينبغى أن يكون وفق معتقداته وأهوائه، وإن كانت ما تزال دراسة الأهداف التربوية تتم داخل منظور فلسفى نظراً لطبيعة هذه الأهداف، لأنها تكون نظرة لما ينبغى أن يكون، إلا أن التربية أصبحت علماً قائماً بذاته. وإن كان هناك مجال لظهور فلسفة التربية. فيجب أن تكون من منطلق أن الفلسفة فى خدمة العلم أو تسير وراء العلم، وبذلك تصبح مهمة الفيلسوف تحليل المفاهيم وفحص الفروض ومراجعة القوانين ومدى الاتساق فى داخل النظرية التربوية التى تسود مجتمع ما، ويحاول بالتحليل الوصول إلى الأصول التى تبنى عليها النظرية، ولا يجوز للفيلسوف أن يقيم مذهباً أو يتصور نسقاً تربوياً أفضل. فمهمة الفيلسوف دراسة الواقع وتحليله وليس تصوراً لما ينبغى أن يكون.